سحر الإسلام

وصلت مغامرة الإنسانية على هذه الأرض بالإسلام إلى هدفها كرسالة إنقاذ عالمية استقرت وتأصلت فيها. أما الفلسفة التي ما فتئت حائرة أمام لغز الوجود، فقد استطاعت بفضل نظم التفكير المتميزة والمتفردة التي جاء بها الإســـلام أن تعود لنفسها قليلا وأن تتمتم ببعض الأشياء الإيجابية. لقد تخلصت الأجرام والأجسام الهائلة الموجودة في الأرض وفي السماء -بفضل النور الذي ســـلطه الوحي على وجوهها- من كونها مجرد أجسام فضائية معقدة، وتحولت إلى معارض هائلة وإلى كتب للقراءة والتأمل، وإلى أنغام متناسقة تأخذ بالألباب وتدير الرؤوس، وإلى ألســـنة بليغة وطلقة تهتف وتفشي -في إطار حكمة خلقها- أسرار ما وراء خلقها. وأصحاب القلوب المحظوظة الذين تيسر لهم أن ينهلوا مرة واحدة من ينبوع الإسلام المتفجر دوما بالماء السلسبيل يصلون إلى متعة الشعور بلذة الوجود الأبدي وسعادته، فيتخلصون من شقاء الوحدة واليأس النابعين من جبلتهم وطبيعتهم.

الذين يعيشون الإسلام كما أنـــزل، يحيون بقلوبهم في هذه الدنيا وكأنهم يعبّون من كؤوس اللذة في جنة الفردوس. وإذا اســـتثنينا الذين يفسرون الإسلام كما يحلو لهم، فإن من تعرف بظله مرة واحدة يتخلص من قلق العدم والفناء، ومن ظلام وعقدة الوعود الكاذبة، ويأخذ نفَس راحة ولو لمدة مؤقتة. وإذا كان هناك أي فكر فتحه الإسلام أمام المؤمنين به، وأي حياة أخرى موعودة خارج هذه الحياة، فهي حياة الجنة للمؤمنين. والقدرة الإلهية الخالقة مهدت للمؤمن حتى النقطة الأخيرة لما وراء أفق الدنيا وأعطته خاتم سليمان، لذا بدأ السلاطين باتباع العدالة، وأصبحت القوة حامية للحق، وانفتحت الأبواب على مصاريعها أمام العلم، وانكسرت القيود والأغلال

التي كانت تعيق حرية الفكر، وتوجهت الشياطين -بعد نـــزعها لقرونها- إلى المعابد، وتخلى الملوك عن ظلمهم وجبروتهم، وساروا في طريق العدالة.

وبفضل الحكمة المنبثقة عن روح الإسلام (يمكن إطلاق تعبير الفلسفة الإسلامية على هذه الحِكَم) تغير الوجه العام للفكر، وتغيرت معالم وجه الأرض حتى أصبحت تشـــبه ديباجا رائعا، وتحول الوجود والحوادث إلى خطيب مفوه وواعظ مؤثر، كما انقلب أديم الأرض إلى أم رؤوف تضم الجميع إلى صدرها الحاني، وبدأت المياه تبعث بخريرها نغمات العشق والْوَلَه والوصال إلى قلوبنا، وتُسمعنا أنغام اللانهاية. أما الجبال المهيبة، والوديان، والسهول المنبسطة فقد أصبحت ممثلة وصوتا لعمقٍ يتجاوز كيانها وبنيتها المادية، وبدأت البساتين والحدائق تمطرنا بألوانها المختلفة بالبسمات، وتقدم الورودُ والأزهارُ بكل سخاء أروع أنواع الجمال التي تدير الرؤوس وتعرضها أمام أنظارنا وقلوبنا، حتى ذاقت أرواحنا فرحة الوجود، وذاق العارفون بالله سعادة لا يمكن التعبير عنها ولا وصفها.

أما أصحاب الحظ النكد الذين لم يدركوا بعدُ أن الإسلام أعظم هدية لله تعالى للإنسانية -وهذا ناتج إما عن حكم مسبق، أو عن سوء تمثيل المسلمين للإسلام- فلا يفهمون الرسالة التي قدمها ولا يدركونها، ولا يستطيعون فهم وعوده وبشاراته، ولا الإحساس بها. ولا يتغير هذا الأمر السلبي عند أمثال هؤلاء حتى وإن داروا حولـــه وتجولوا بقربه. فهم قريبون منه ظاهرا ولكنهم بعيدون عنه جدا في الحقيقة. ينظرون إليه على الدوام، ولكنهم لا يفهمونه أبدا لوجود غشاوة على أبصارهم. حتى إن قربهم منه يصبح وسيلة وسببا للبعد عنه، ويصبح النظر إليه وســـيلة لعدم الإبصار ولعدم الاحساس به. ولكن ما العمل! فهذه هي طبيعتهم، والشوك يبقى شـــوكا مؤذيا وإن كان قرب زهرة جميلة وعطرة. والغراب يبقى غرابـــا وإن حط على شـــجرة في بســـتان بالقرب من البلابل، ويبقى صوته صوت غراب. إنّ عدد الذين

يلعنون النـــور ليس قليلا. ولقد رأينا جميعا الذين حاربوا النظام والأمن. وعندما أتذكر أو أرى من يتقيأ عند شـــمّ رائحة الورد يتعكر مزاجي. والخلاصة أن كلا يعمل على شاكلته.

تبتهج الأرواح -التي تعرفت على الإسلام وأنست به- بنداء اللاهاية الذي تسمعه وهو صادر من كل شيء حواليها. فمن يخطو إلى شاطئه الآمن الهادئ يتبوأ الصدارة وإن عُدَّ من الدهماء عند الناس. وهؤلاء الذين يضعون جباههم على الأرض ساجدين مائة مرة يوميا في جو من المهابة والمخافة يتبارون مع الملائكة الكرام كفرسيْ رهان.

أما التيجان التي لم يستسلم أصحابها للإسلام فهي تيجان مؤقتة زائلة، وكل بيان أو كلام لم يؤخَذ منه، ولم يُستنبط منه ولم يَتخذه أساسا، فهو أسطورة من الأســـاطير أو خرافة من الخرافات. القلوب التي لم تتغذ به، ولم تتشربه تبقى فجة وفارغة، وحظوظها سوداء مظلمة. وقد تلتمع أحياناً وتُبهر بعض العيون، ولكنها لا تستطيع اللمعان طويلا، ولا إضاءة ما حواليها أبدا.

إن احتـــواء أي فكر أو نظام لجميع الأزمنة واحتضانـــه لها، والبقاء والاستمرار على الدوام دون ضعف أو وهن، ولا بهت في اللون أو شحوب، مرتبط بمدى قابليته على تجاوز كل الصعاب. والأفكار والكلمات والحِكَم والنظم التي لا تستطيع تجاوز الزمان والمكان ســـرعان ما يأتي أوان ضمورها وشحوبها وموتها، وتتساقط تساقط أوراق الخريف، وتنمحي أسماء أصحابها وواضعيها.

الإسلام ثابت من جهة، ومتغير ومتطور من جهة أخرى، فهو كشجرة باسقة أصلها في الأرض وفرعها في الســـماء، قـــد ضربت جذورها في الأعماق، تعجز أي عاصفة مهما اشـــتدت عن اقتلاعها، وأغصانها ممتدة للجهات الأربع، تعطي في كل فصل أثمارا جديـــدة. أيْ هو كشجرة طيبة تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها. وكلما آتى الإسلام أُكُلَه فتح عهدا جديدا.

فيه عصارة اللذات الدنيوية والأخروية... فيه سحر الأبدية والخلود، وسره... يبقى ضياء الشمس الذي تنشره على العالم كذبالة شمعة مرتجفة بجانبه... تبقى بساتين وحدائق إرم ذات العماد أمام بساتين وحدائق المعاني التي ينبتها في القلوب كصحراء جرداء... أما المسافات والعوالم الفسيحة التي يقدمها للعقل وللمنطق وللمشاعر، فلا يسعها الكون الهائل بأكمله.

إن الأفكار النضرة والأنوار التي أهداها الإسلام للفكر الإنساني سماوية كلها، وليست من أي منبع آخر، ولم تَرْضَع من أفكار أخرى، أو تختلط مع أضواء أجنبية، ولم يتكدر صفاؤها بتيارات أخرى، ولم يشعل فتيلها من مواقد أخرى. بل على العكس، فكل بارقة ضوء، وكل بركة، وكل وجه من وجوه الجمال، وكل طعم ولذة مقدمة من قِبَله، إنما هي ثمرة من ثمار ما وراء السماوات، لم تمسسها يد أحد. ولو لم تكن هناك خصومة الأعداء، وأفكارهم وأحكامهم المسبقة الظالمة، ولا جهل الأصدقاء وجحودهم، لاجتمعت الإنسانية جمعاء اليوم حول مائدته السماوية، واتحدت وتصافحت.

لقد بقي الأعداء سادرين في عقدة الخصومة له والعداء معه. أما الأصدقاء فقد كدروا أفقه، لذا حَرَمَنا الإسلام من عطاياه السماوية الثرة، وانكمش على نفسه مثل لؤلؤة داخل صدفتها. إن الشمس تتعاطى ضياءها مع من يتوجه إليها، وتلبس الورود ملابسها المزركشة طوال نظرها للشمس دون أن تطرف عينها، وتبقى الأشجار حية ونشطة ما دامت تديم علاقتها مع الماء ومع التربة والهواء. أيْ أن كل شيء، نعم كل شيء دون استثناء يأخذ مكافأته وجائزته بدرجة دوام ارتباطاته، فإن لم تنصت القلوب للإسلام فلا يستطيع الإسلام إيصال صوته إليها. فإن لم يتم تمثيله بشكل صحيح ولائق خَفَتَ صوته وعجز عن التأثير في الأرواح. وكلما أسند الكلام الجيد بالتمثيل الجيد والقدوة الحسنة استطاع تهييج القلوب، واجتياز جميع العقبات، والوصول إلى كل قلب يحمل استعدادا للخير وتوجها له. وما

أكثر القلوب التي فتحها والتي اجتازت جميع العوائق التي وقفت أمامها، وما أكثر حضارات القلوب التي أسسها أصحاب هذه القلوب التي تنبض على الدوام بتوقير الإسلام عند قيامهم وقعودهم، من الذين يعيشون في جو من المحبة والوجد والعشق، ويحيون به.

أما نحن فالإسلام في نظرنا -حتى مع أرواحنا المتهدمة والخربة هذه- هو أمنيتنا ونور قلوبنا. إن متنا نتمنى أن نموت بين أذرعه وفي حضنه. وإن عشنا نروم العيش في مناخه وتحت ظله. نستمد منه دفء الرغبة في الحياة، والشوق إليها، وعشقها. ذلك لأن كل شيء سينمحي وسينهدم، وكل شيء سيزول من الذاكرة وسينسى في هذه الحياة الفانية. هو وحده الباقي بقيمه دون شحوب أو زوال. وهو وحده الباقي نضرا على الدوام. أينما رفرف عَلَمُه ساد الهدوء والأمن والسكينة، وحيثما تليت خطبته سادت القيم الإنسانية وضُمن بقاؤها. هو الصورة الأرضية للنظام في السماوات... وصورة التلاؤم والتناغم الموجود بين الملائكة على الأرض. الذين ينسجمون مع إيقاعه يكونون في انسجام مع التناغم العام الموجود في الكون، ويتخلصون من أي تضادّ مع الحوادث وحقائق الأشياء أو تضارب معها.

هو نسيج من الذهب الخالص مُحاك بحيث يستحيل على أي نظام آخر الدنو حتى إلى عتبة بابه، أو الاقتراب من إتقان نقوشه ومن ظرفها. فيه نرى تناغم عوالم السماوات وما وراءها، ونسمع فيه نبض قلوبنا، ونستمع إليها. وبالانتساب إليه نجد السر الكامن وراء استيعاب قلوبنا سعة الكون كله. ندرك هذا فنشعر بالرجفة وهي تسري في أجسامنا. ولا يوجد أي نظام معنوي وروحي أو أيّ فلسفة أو أيّ تيار يستطيع أن يَهَبَ العمق والدفء والبهجة للأرواح مثله. فقد وهب الله تعالى له وحده سعادة الروح والبدن، وسعادة المادة والمعنى، وسعادة الدنيا والعقبى.

من لا يستطيع الاستماع إلى صوت الضمير لا يستطيع فهمه. والذين لا ينظرون بعين القلب لا يستطيعون رؤيته بطابعه الأصيل الحقيقي. وكما قال الغزالي "لا يستطيع عقل المعاش الدنيوي أن ينقلب إلى عقل المعاد الأخروي"، وحسب قول جلال الدين الرومي: "إن لم يستطع العقل الترابي أن ينقلب إلى عقل سماوي" فلا مناص من وقوع أقوى منطق إلى وهدة اللامنطق. لقد قاست الإنسانية منذ ظهورها حتى الآن من صخب النـــزاع بين العقل والقلب. ولو فشلنا في إقامة جسر بين العقل والقلب، ولقاء بينهما، وتأمين التناغم والتلاؤم بينهما، فإن هذا النـــزاع والخصام سيستمر.

أفق القرآن الساحر

القرآن هو الضوء اللامع للكلمات والحروف في عالم الأزل والأبد. هو صوت الملكوت الذي يخاطب فكر الإنس والجن ومشاعرهما. وعندما أتى اليوم الموعود وتحول إلى لؤلؤة خارقة الجمال في أجمل صدفة وأنقاها، رأى فيه أبطال البلاغة والأدب جمالا لا يبهت، وحسنا لا يزول. وسيبقى هذا الكون الكبير الذي هو معرض للجمال والفن والألوان الإلهية المتناسقة والمتناغمة موطن الخوف وبلد الرعب تحول فيه العفاريت والأرواح الشريرة، مع أنه -أي الكون- يُعَدّ كتابا يفشي كلُّ سطر فيه سرا من أسرار الملأ الأعلى، وستبقى سطور هذا الكون وأوراقه مبعثرة ومتشتتة حتى يأتي اليوم الذي يتحول فيه القرآن إلى نور ينهمر على وجه هذا الوجود. ويُجمع الناسُ -عدا أصحاب الأفكار المسبقة- أنه عندما أشرق القرآن كشمس ساطعة، تبددت الغيوم السوداء التي كانت تجثم على الدنيا، وظهر الجمال الباهر للوجود، وانقلبت جميع الأشـــياء إلى فقرات وجمل وكلمات لكتاب ممتع ومؤنس ومبهج لقارئه. عندما رَنّ صوته انهمرت الأنوار على عيون القلب، وبدأت المشاعر التي فارت في الأرواح وتوهجت، والألسنة التي أصبحت ترجمانا لهذه المشاعر بإنشاد أناشيد النور.

أجل!.. فاعتباراً من اليوم الذي أضيئت به العيون والقلوب وتنورت، كم من لغز في الكون كان ينتظر الحل منذ آلاف الســـنوات، وكم من مشاكل معقدة متداخل بعضها مع البعض الآخر كانت تنتظر الحلول حلت الواحدة منها إثر الأخرى، وظهرت العلاقة الصحيحة بين الإنسان والوجود والخالق واضحة وضوح البدر التمام، ولبست كل الألغاز والمعميات لباس المعاني وانتظمت في مدارات الحكمة.

القرآن هو قمة الفكر المتين والصحيح، وأساس التعبير الدقيق، وقاعدة للتعبير المنطقي. وكما كان هذا الفرقان العظيم سيد الكتب السماوية وغير السماوية كان المخاطب الأول له سيد الأنبياء والمرسلين. الكتب السابقة جاءت لكي تضع إشارات على طريقه وأعلاما، أما الكتب التي جاءت بعده فلكي تقوم بشرحه ووضع الهوامش والحواشي، كلٌّ حسب خريطة روحه وغنى ذلك الروح. عَرَفَه مَنْ قَبلَه بصورته التي بَشّر بها الأنبياء هذه الرسالة، وعرفه الذين جاءوا من بعده بصورته المنـــزلة الملموسة، ورأوا التأثير الكبير الذي أحدثه، والانقلاب العظيم الـــذي حققه، فانحنوا أمام بلاغته التي لا تضاهى، واعترفوا بأنـــه ســـلطان الكلمة والإعجاز البلاغي. وعندما كان القرآن يتنـــزل إلى الدنيا بموجات مختلفة من الأنـــوار لم يَصرِف أصحاب القلوب النيرة نظرَهم عنه أبـــدا، ولم يلتفتوا عنه، بل ارتبطوا بـــه بكل جوارحهم وأرواحهم. أجل!.. بينما كان ينـــزل من السماء كشلال ليملأ القلوب العطشى، فتح أصحاب القلوب الواعية صدورهم له ولم يضيعوا قطرة واحدة منه.

استطاع هذا القرآن أن يوصل صوته إلى أبعد زاوية من زوايا الدنيا في قفزة واحدة، وأن يسكت كل أصوات الشؤم، وأثار في كل فكر يبتغي الحق ولا يملك فكرا أو حكما مسبقا عواطفَ جياشة كأنها أصوات خرير الكوثر، وأطفأ في القلوب التي فتحها نيران الهجر، وفجّر في كل روح أمل الوصال والشوق إليه. الطبائـــع الباردة تحرَّك بها نبضُ الحرارة، أما القلوب المتولهة برغبة الأبدية والخلود فقد أنست به واطمأنت إليه.

وإذا كان هناك من بقي جديدا ونضر الألوان على الدوام في هذه الدنيا الفانية التي يَقدُم فيها كل جديد ويبلى فيها كل نضر، ويبهت فيها كل لون، فهو القرآن. فهو الكتاب الوحيد الذي استطاع أن يقف منذ نـــزوله في وجه جميع الأعاصير والعواصف التي هبت، والأمطار والثلوج التي سقطت،

وفي وجه جميع الظروف القاسية التي ظهرت وبدت أمامه. واستطاع أن يحافظ على أصله ككتاب سماوي وحيد دون تغيير أو تحريف. لذا فما أن يرتفع صوت القرآن من حنجرة قارئ حتى نشعر وكأنه نزل الآن من السماء وكأننا مدعوون إلى وليمة إلهية آتية من الجنة، وعندما ينثر اللآلئ تشعر القلوب المؤمنة أنها قد سَمَتْ واستغنت عن جميع ثروات الدنيا. القرآن قلادة بيان منظومة من الكلام الإلهي، وفيض من العلم الذي يشكل الحدود النهائية للإدراك البشري، وخارطة لكل الوجود مرسومة ومزينة ومحاكة بالحرير اللاهوتي. عندما يُسمَع صوتُه في أي بقعة يبدو كل كلام وكل تعبير آخر نوعا من الضوضاء لا غير. وفي البقاع التي ترتفع فيها أعلامه يغمر النور قلوب المؤمنين، وتنزل الحجارة على رؤوس الشياطين، ويعيش الربانيون هناك أعيادا دائمة.

ربط الله تعالى رب العالمين ذو القوة المتين سعادة الدارين بإرشاده وتوجيهه. فلا يمكن الوصول إلى الهدف من دونه، ومن يستغن عن إرشاده ووصاياه ولا يلتجئ إليه ضائع في الطرق وتائه. هو آخر وأكمل كلام يهدي من اتبعه وسار في إثره، ويوصله إلى الغاية والهدف دون خطأ أو انحراف. ومع أنه يُتلى بكل سهولة صباح مساء فلا يُستطاع الإتيان بمثله. ومن يستمع إليه بأعماقه يشعر أنه قد سمع كل ما يجب سماعه، ومن ذاق هذه اللذة يصبح مطمح النظر الإلهي، وأصوات هؤلاء تتداخل على الدوام مع أنفاس الملائكة.

حتى نزوله وتشريفه للأرض كان كل نبي يشعل مشعل الهداية التي يحملها من مصدر نوره وضيائه، ويحول الصحارى القاحلة حوله بقطرات قليلة منه إلى جنان وارفة الظلال.

بل إن العصور المظلمة التي جال فيها ظلُّه أصبحت عصورا ذهبية. اما العصور التي تعرفت به عن قرب وعاشته فقد تحولت إلى ما يشبه الجنة. من

وهب نفسه له سما إلى مرتبة الملائكة، وأصبح كل ما في الكون من أحياء وجماد أليفا عنده.

مَنْ فهم القرآن حق الفهم تصبح البحار الواسعة كقطرة ماء أمام ما يرد إلى صدره من إلهام. والعقل الذي تنور بنوره تتحول الشمس تجاهه إلى مجرد شمعة. أنفاسه التي نشعر بها في أعماق قلوبنا تحيينا، وضياؤه الذي يغمر الأشياء يجعل كل موجود برهانا للحق تعالى. من يصله صوته -وإن كان في أبعد أرض وأخفاها- دبت فيه الحياة وكأنه سمع صور إسرافيل. والقلوب التي تستمع لصوته وبلغته الخاصة بـــه يتوثب حركة ويحيا وكأنه يستمع إلى نغمات من جبريل، ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (الجاثية:٢). أجل هو بصائر ورحمة للذين لم تمت قلوبهم.

لم يكن القرآن في أي يوم من الأيام -مثل غيره من الكتب- كتابا بقي ضمن إطار زمن أو مكان معين من طفولة الإنسانية. بل هو معجزة كبيرة وشاملة وغنية تتجاوز كل الأزمنة والأمكنة، وتلبي جميع المطالب الإنسانية بدءً من العقائد وانتهاءً بأصغر الآداب الاجتماعية. وهو بعمقه هذا يستطيع حتى اليوم تحدي الجميع وتحدي جميع الأشياء.

قام في العهد الذي نـــزل فيه بمواجهة جميع اعتراضات مخاطبيه، وتحداهم أن يأتوا بكتاب، أو حتى بســـورة أو بآية من مثله. ذُهل منه المعارضون الأولون له، وسُحروا من بيانه ومن بلاغته، حتى اتهموا الرســـول ﷺ بأنه ساحر، وأنه شاعر. وإزاء أخباره الغيبية التي أتى بها من وراء الأستار فقدوا صوابهم فقالوا عنه إنه كاهن، ولكنهم عجزوا تماما عن الإتيان بمثله. أيْ أن أبطال الشعر والنثر والخطابة وأعلامها من معارضيه اضطروا إلى الصمت والخرس والانسحاب إلى جحورهم. أما منكرو هذا العصر المعاندون الذين ورثوا روح المعارضة والإنكار من هؤلاء السابقين، إلا أنهم على الرغم من كل أنواع الديماغوغية والديالكتيك وجميع أنواع المجابهة والاعتراض لم

يستطيعوا إنجاز شيء خارج إظهار العجز والغضب. تغيَّر الزمان وتعاقبت العصور واختلفت القناعات ووجهات النظر، وحميت حدة المعارضة والصراع، ولكن القرآن لا يزال واقفا كالطود الشامخ، وكالبحر الواسع، وكالسماء التي لا تحدها حدود تجاه جميع المعارضين وتجاه جميع الاعتراضات. وهو مستمر في بث روعه وروعته في القلوب، وفي هداية العقول. منذ نزوله قبل أربعة عشر قرنا وتربعه على عروش قلوبنا تقلبت عهود كثيرة ظهر فيها العديد من مشاهير البلغاء، ومدارس فكرية عديدة، ونظم عديدة وفلسفات مختلفة. وقد حاول العديد منها هدم القرآن واستعملوا لهذا الغرض كل ما لديهم من وسائل ومن سحر الكلام من بيان ومن بلاغة لهدم القرآن، وخاضوا على الدوام غمار الحرب معه. ولكنهم غُلبوا على الدوام وارتدّوا على أعقابهم خائبين أمام الأسس القوية المتناسقة والمنطقية التي وضعها للكون وللوجود وللإنسان، والإيضاحات العميقة لهذه العلاقات. أجل لقد أتى القرآن بنظرة متميزة للكون وللأشياء وللإنسان بأسلوب غاية في الروعة والسحر. لأنه يتناول الإنسان ككل ضمن الوجود بأكمله، ولا يهمل أيَّ شيء، بل يضع كل شيء مهما كان صغيرا في مكانه المناسب. الأجزاء فيه مرتبطة ارتباطا وثيقا ودقيقا بالكل، والأجوبة المختلفة عن أدق الأسئلة التي تخطر على بال الإنسان في هذا المعرض الكوني الهائل ترد فيه. وبينما يقوم بتحليل أدق المسائل الموجودة سواء في عالم الشهود أم فيما وراء الأستار حتى أدق تفاصيلها، لا يدع هناك أي تردد أو شبهة أو علامة استفهام في العقول. أجل! إن القرآن في جميع هذه التفاصيل الدقيقة التي يوردها لا يدع أي فراغ في هذا الموضوع لا في العقول ولا في القلوب ولا في المشاعر ولا في المنطق، لأنه يحيط بعقل الإنسان وبأحاسيسه وبمشاعره وإدراكه بشكل يجعل الإنسان وهو تحت تأثير هذا العشق يكاد يخرج من هويته الإنسانية متوجها إلى الذات العلية. ومثل جميع السائرين في الطريق إلى الله تعالى ينتقل من الدهشة إلى الذهول ومن الذهول إلى بحر من العواطف

المتلاطمة التي تجعله ينحني من الخشية وهو يقول ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾(الكهف:١٠٩). إذن فهذا هو القرآن... المفتاح الذهبي لخزائن الكلمات التي لا تنفد ولا تنتهي. والإيمان هو شفرات أو أسنان هذا المفتاح السحري. ولا أعتقد أن من يملك مثل هذا المفتاح وهذه الشفرات سيحتاج إلى أي شيء آخر بخصوص مسائل القواعد والأسس العامة المتعلقة بالإنسان والوجود والكون.

ولا يتوهمن أحد أنني بكلماتي العاجزة هذه أقوم بسرد مديح للقرآن، فمن أنا لكي أمدح القرآن!! وكما قال الشاعر:

من يستطيع وصفه سوى الله الوصّاف؟

الملائكة الكرام المصطفون صفا صفا،

يصفونه ويعظّمونه حتى تحسبهم في طواف...

وقد يظهر من لا يستطيع رؤية هذه الميزة الخارقة في موضوع البلاغة وجواهر الكلام، ولكن من الواضح أن كل من يستعمل ضميره يعلم أنه لم يخطئ في أي وقت في هذا الصدد، ولا سيما إن أجال ناظريه وشاهد التأثير العالمي للقرآن.

لقد أحدث القرآن في أول عهده بالنزول وأول عهده بتشريفه الدنيا تأثيرا لا يمكن تصوره في الأرواح وفي العقول والقلوب أيضا، بحيث إن درجة الكمال التي وصلت إليها الأجيال التي نشأت في جوه النوراني كانت معجزة قائمة بذاتها لا تحتاج معها إلى ذكر اي نوع آخر من معجزاته. ولا يمكن العثور على أي أمثال لهم في مستواهم من ناحية التدين والتفكير وأفق الفكر والخُلق ومعرفة أسرار العبودية. فالحقيقة أن القرآن قد أنشأ جيلا من الصحابة آنذاك لا نبالغ إن قلنا إنهم كانوا في مستوى الملائكة. وحتى اليوم فهو يقوم بتنوير قلوب المتوجهين إليه الناهلين من نبعه، ويهمس في أرواحهم

أسرار الوجود. والذين يَدَعون أنفسهم بكل أحاسيسهم ومشاعرهم وقلوبهم وقابلية إدراكهم تسبح في جوه الذي لا مثيل له سرعان ما تتغير عواطفهم وأفكارهم، ويحس كل واحد منهم بأنه قد تغير بمقياس معين وأنه أصبح يعيش في عالم آخر. أجل! ما أن يتوجه إليه الإنسان من كل قلبه، حتى لا يستطيع بعد ذلك الخلاص من تأثير سحره وجاذبيته. إن القرآن يتناول الطالب الذي جذبه نحوه فيعجنه ويشكله من جديد ويجعل منه شخصا آخر تماما... شخصا رقيقا ذا حساسية مرهفة، إلى درجة أن الإنسان يتأكد بأن أي تغيير لا يكون إلا به، بل يمكن في أحيان كثيرة تحقيق العديد من الأمور والتي كان يخيَّل من قبلُ أنها مستحيلة التحقيق، حيث تتحول هذه الأمور في ظله إلى حالة اعتيادية مما يُذهل الجميع. والقرآن يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً﴾(الرعد:٣١) لأنه أجرى في القلوب والعواطف والأحاسيس وفي العقول تأثيرا بالغ المدى بحيث أن هذا التأثير لا يقلّ غرابة عن تسيير الجبال أو عن تقطيع الأرض أو تكليم الموتى، أو عن إحياء أجساد بالية منذ آلاف السنين.

كان كل صحابي بطلا في عالم القلب والروح، وكان مجتمع الصحابة مجتمعاً متميزا مباركا نشأ في ظل فيض وبركة القرآن. واستطاع هؤلاء الصحابة إجراء تأثير عميق وكبير على خُمس البشرية، حتى إأن عملهم هذا ما كان يقلّ من ناحية الروعة والخارقية عن قلع الجبال عن أماكنها أو سقي الأموات ماء الحياة أو ربط السماء بالأرض. وما كان هناك أي مجتمع آخر يمكن مقارنته بمجتمعهم الفريد هذا. فهؤلاء الصحابة الذين عُجنوا بروح القرآن، وتشكلت أنفسهم حسب مبادئه السماوية، أي أصبحوا من ناحية الروح والمعنى ترجمانا للقرآن، استطاعوا تحقيق المستحيلات وفتحوا به طرق الخلود أمام الأرواح الميتة، وغيروا وجه الدنيا، ونقلوا الإحساس بلذة عالم الروح إلى المجتمعات التي احتكوا بها وتعرفوا عليها، وكسروا الأقفال

الموجودة على الأفكار وفوق الأفواه، ورفعوا الإنسان مرة أخرى إلى المرتبة الرفيعة التي رفعه الله إليها وشـــرفه بها، وقدموا نظرة جديدة وتفسيرا جديدا لموقع الإنسان في الكون بين الموجودات، وركّزوا الأنظار على السر العميق الموجود بين الأوامر التكوينية وبين القواعد الشرعية، شارحين وموضحين الغاية والحدود النهائية للقلب والإرادة والأحاسيس والمشـــاعر، ومحركين وباعثين أصول وأسس القيم الكامنة والنسبية الموجودة في روح الإنسان، لكي يوجهوا الإنسان العادي إلى طريق الإنسان الكامل. فنجحوا في جعل الإنسان يحس في كل ما يقع بصرُه عليه أو يصل إليه بأحاسيسه، أو يشعر به في قلبه، بأصابع الإرادة الإلهيـــة والقدرة اللانهائية، أي يربـــط كل شيء ويرجعه إلى صاحبه الأصلي.

إن كان المؤمن ثـــاقـــب النظر متفتح البصيرة يقظ الروح والأحاسيس مرتبطا بالله بفكره وتدبره، يكون قـــد ابتعد تماما عن ســـطحية الارتباط بالجسد وبمطالبه، وينظر إلى الحياة من زاوية أخرى ويرى لها طعما آخر، أيْ ينتبه إلى ما وراء أفق هذه الحياة. ومثل رجل الحقيقة هذا يرى ويشاهد في كل شيء في هذا الوجود العلم الإلهي مرفرفا عليه، ويد القدرة عاملة فيه، فيحس برجفة، وتتداخل في نفسه مشاعر الأمل والقرب مع الخشية والرهبة. ومع كونه يعيش في الدنيا إلا أنـــه يحس وكأنه في ذروة من ذرى الآخرة. عندما يأخذ نفسا يحس بالأمل والترقب، وعندما يعطي نفسا يحس بالمخافة والمهابة. ويتجول دائما في الساحة التي رسمها القرآن ويعيش حياته في ظلال القرآن وألوانه.

الدعاء

الدعاء نداء وتضرع، وتوجه من الصغير إلى الكبير، ومن الأسفل إلى الأعلى، ولهفة من الأرض ومن سكان الأرض نحو ما وراء السماوات، وطلب ورغبة وطرح لما في الصدور من آلام. والداعي يشعر بضآلته أولا، وبعظمة صاحب الباب الذي يتوجه إليه ثانيا. لذا يكون متواضعا جدا، وعندما يرفع يديه بالدعاء مؤمنا بالاستجابة، يتحول ومن حوله إلى عالم روحاني وسماوي، وكأنه يسمع تسبيحات وأذكار الروحانيين وأدعيتهم. والمؤمن بهذا التوجه وبهذا الدعاء لا يطلب ما يوده وما يطمح إليه فقط، بل يستغيث أيضا مما يخافه ويخشاه، وهو يعلم بأن الدعاء حصنه الحصين الذي يلجأ إليه.

آمالنا ورغباتنا هي دوافع نجاحنا وتوفيقنا. أما قلقنا وخشيتنا فوسيلة من وسائل يقظتنا وانتباهنا تجاه تصرفاتنا السلبية. ومع أننا لا نعرف ما قدره الله تعالى لنا ولمستقبلنا من أمور، نعدّ آمالنا وخشيتنا في كل حين وعزمنا وقرارنا أمارة من أمارات ذلك القدر، ونعد دعواتنا القولية والفعلية والحالية وسيلة من وسائل هذا القدر في مستوى الشرط العادي. لأننا نعلم من بيان النبي الصادق المصدوق ﷺ أن النتيجة التي يحصل عليها كل واحد ستتحقق بمقياس كبير حسب سلوكه وأعماله. غير أنه ليس من الصحيح عند التوجه إلى الله تعالى بالدعاء أن نقدم رغباتنا ومطالبنا، ونربط أدعيتنا بها. ولكن الصحيح هو أن نتوجه إلى الحق تعالى، ونعرض عليه حالنا بشعور العبودية، وبشعور من التواضع والفناء، وبلسان الفقر والعجز.

والحقيقة أننا بأدعيتنا نظهر ثقتنا واعتمادنا وتوقيرنا لربنا، وبأنه قادر على كل شيء. ويجب أن تتوجه أدعيتنا إلى هذا أكثر من توجهها لطلب تحقيق رغباتنا الدنيوية. ونصل أحياناً في الدعاء إلى نقطة نسكت فيها ونصمت، ونكل كل شيء إليه مع الاحتفاظ بالتوسل بالأسباب، ونقول كما قال الشاعر:

أحوالنا معلومة يا رب من قِبلك،

ما الدعاء إلا تضرع من عبيدك...

وأحياناً نقتبس أدعيتنا من القرآن الكريم أو من أدعية سيد البلغاء والأنبياء، ونفتح يد الضراعة أمام باب الرحمن الذي هو محرابنا الأبدي لنشرح ونشكو أحوالنا وما يجول في أعماق أرواحنا. ورعايةً منا لأدب المثول أمامه نغلق أفواهنا تماما وننتقل إلى مراقبة صامتة. وهذه الحال حسب بعضهم وبدرجة الصدق المصاحب لها أبلغ من كل كلام، وأفضل من كل بيان، وأحسن من كل تضرع. ولما كان الله تعالى على علم بكل أحوالنا، الظاهرة منها والخفية، فإن المهم هنا في الدعاء اللب والجوهر أكثر من الكلمات نفسها. والله تعالى يقول لرسوله الكريم ﷺ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾(البقرة:١٨٦). إذن فهو من ناحية معرفة طلباتنا ورغباتنا أقرب إلينا منا. لذا فحسب هذه المعرفة بالحضور الإلهي وبالقرب الإلهي فإن الأدعية الصامتة هي عين الأدب مع ذلك المستوى المتميز من العباد. وسواء أكان هذا نابعا من مفهوم الغيب أو من مفهوم الحضور الإلهي فإن الله تعالى الذي يقول ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾(غافر:٦٠) يشوقنا إلى الدعاء. لذا يعد عدم الدعاء استغناء لا معنى له وانقطاعا وبعدا عن الله تعالى.

إن من يستطيع فتح يديه لله داعيا وضارعا من كل قلبه، ويتوجه له، يستطيع تجاوز البعد الموجود بينه وبين ربه —الذي هو أقرب إليه من حبل

الوريد- والنابع من وضعه المادي والجسماني. وباحترامه لهذا القرب يستطيع الخلاص من وحشة بُعده عنه. ويشاء الله تعالى إسماعه ما يجب أن يسمع، ويريه ما يجب عليه أن يرى، وينطقه بما يجب عليه أن ينطق، ويوفقه لعمل ما يجب عليه أن يعمله. وهـــذه المرتبة من القرب مرتبة خاصة يمكن الوصول إليها عن طريـــق النوافل، حيث يرى ما وراء المُشاهَد، ويسمع ما وراء الأصوات، وتكون قابلياته الأخرى أيضا غير اعتيادية، وتتجاوز قدراتـــه السابقة ليصبح في هبة واحدة إنسانا في بُعد آخر، وليرتفع إلى مستوى آخر، ويكون عبدا دائم التضرع لله، يتضرع إليه ويدعوه ويجد منه الاستجابة... يتمسك بالدعاء والتضرع كتعبير عن إيمانه بالقدرة غير المحدودة لربه، ويسند ظهره إلى قوته غير المحدودة، فلا تفتر شـــفتاه عن الدعاء في كل أمر من الأمور وإن بدا أبعد شيء عن التحقق.

ولهذا فإن الأرواح التي وصلت لمستوى تذوق لـــذة الإيمان وسمت بالعبادات، لا تقصّر أبدا في الدعـــاء. على العكس من هذا، فهي تدرك أن العبادات هي غاية الموجودات وســـبب خلقها. لـــذا تعطي للدعاء أهمية قصوى. وبجانب قيـــام أصحاب هذه الأرواح برعاية الأســـباب المادية والمعنوية، يسارعون إلى فتح يد الدعاء والتضرع لربهم من أعماق قلوبهم، ويرون أن الأدعية وسيلة تقربهم إلى خالقهم، وهي منبع آمالهم ورجائهم. وفي مثل هذا الجو من القرب يُحَسّ بجو من المهابة والقلق إلى جانب الشعور بالبهجة وتَوقُّع تحقيق الآمال. وعندما ينظر الإنسان إلى كل شيء من خلال تأمله في أزليته وأبديته سبحانه، يحس وكأنه يستمع إلى دقات قلبه المرتعش، وينتقل إلى حالة من اليقظة والتمكين. وهاتان الحالان اللتان تترافقان عادة عند الدعاء وتتداخلان ببعضهما تتسعان وتتطوران بنسبة طردية مع سعة أفق المعرفة الإلهية عند الإنسان. والقرآن يشير إلى حال المؤمن عند الدعاء وإلى حالته الروحية عندما يقول: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾(الأعراف:٥٥). وهذه الآية تشير إلى أن المؤمن لا يمكن أبدا أن يستغني عن الدعاء وعن

الالتجاء إلى الله، وإلى أن الله تعالى بجانب عظمته وكبريائه وجبروته فلا يسد أبواب رحمته وعنايته، بل يذكّر الإنسان بأن أبواب رحمته مفتوحة للجميع على الدوام على مصاريعها، ويؤكد على أهمية الدعاء.

ونظرا لكونه هو وحده خالقنا وموجدنا ومطعمنا ومطورنا من حال لحال، والعارف بحاجاتنا ورغباتنا والمستجيب لها، وصاحب الرحمة الواسعة الذي لا يدع أمورنا لغيره، وذلك مقابل عجزنا وفقرنا وضعفنا وحاجتنا، لذا كان من الأهمية بمكان قيامنا بتعيير سلوكنا وتصرفاتنا تجاهه بكل دقة وعناية. نحن عاجزون وضعفاء ومحتاجون، بينما هو الحاكم المطلق على كل شيء. لذا نحس على الدوام بمدى صغرنا، وبمدى عظمته، ولا نتوجه عند طلباتنا الفعلية والحالية إلا إليه وحده دون غيره، ونعلم أن الظهور بمظهر المستغني عنه ليس إلا سوء أدب. كما نَعُدّ أي تصرف يتسم باللامبالاة عند عبادتنا له أو عند توجهنا له بالدعاء، أو أيّ تصرف يفتقر إلى الجدية، عدمَ احترام وعدم توقير. لذا نعتني غاية الاعتناء أن نتوجه إليه على الدوام بمشاعر الخوف والإشفاق والمهابة. وعندما نشعر بمدى قربه منا وبأنه سيستجيب لدعائنا نشعر بعظمته وكبريائه جنبا إلى جنب مع سعة رحمته وشفقته ولطفه... فنرتجف من خشيته ونرتعش، ونعيد النظر في تصرفاتنا وسلوكنا وأعمالنا، وحتى في درجة ارتفاع أصواتنا، ونعيرها من جديد، لأننا سنكون في جو من الشعور بأننا تحت مراقبة من لا يغيب عنه شيء، وتحت نظره. فبجانب أذواقنا لا ندع الاحتياط والتدبير. وبهذا المعنى فالدعاء أصفى مظهر من مظاهر العبودية وأصدقها في كل حين لكونه لبّ التوجه إلى الحق تعالى بالطلب وأفضلَ إعلان للعبودية. والحقيقة أن كل الموجودات تدعوه وحده على الدوام بلسان حالها، ونوع قابلياتها، وبلسان حاجاتها الفطرية، فيقوم بالرد والاستجابة لها ضمن إطار من الحكمة، ويسمع كل صوت ويستجيب له.

ولكن ليس من الصحيح توقع الاستجابة لكل أدعيتنا كما هي، لأننا لا

نأخذ بنظر الاعتبار إلا رغباتنا وطلباتنا المتعلقة بأيامنا الحالية. فنضيّق بهذا إطار طلباتنا، وننسى أو نهمل المستقبل أو الأمور الأخرى المتعلقة بنا عن قرب، ولا نأخذها بنظر الاعتبار. ولكنه تعالى يرى حالنا الحاضر، وكذلك مستقبلنا القريب والبعيد في اللحظة نفسها، فيوسع ما ضيقناه حتى يجعل أدعيتنا بوسعة الدارين في الدنيا وفي العقبى، ويستجيب لها ضمن أبعاد متعددة حسب موجبات رحمته وحكمته. أجل!.. فهو عندما ينير أوضاعنا الحالية لا يفسد مستقبلنا، ولا يحوّل أضواء أيامنا الحالية إلى ظلمات في المستقبل. وعندما يقوم بالإنعام علينا لا يَسحب من الآخرين نعمه ولا يحرمهم من فضله، بل يستجيب للجميع ولكل شيء استجابات عميقة، ليظهر لنا أنه سمع أدعيتنا، وأخذ طلباتنا بنظر الاعتبار، فيهب قلوبنا بقربه وحضوره انشراحا وبهجة وراء كل خيال وتصور.

والقلب المتفتح على هذه المعاني عندما يفتح كف التضرع والدعاء يعلم بوجود من يراه ويحس حتى بأنفاسه، ويعلم سره ونجواه، ويشهد أنينه وبكاءه، وهو على كل شيء قدير، وحاكم ومسيطر على كل شيء، يعمل ما يشاء وكيفما يشاء، وأن هناك حِكَما مختلفة في كل ما يفعله، واستنادا إلى رحمته وإرادته ومشيئته يرى بأنه يستطيع التغلب على كل صعب من الصعاب، ويحس بالطمأنينة في أكثر أوقاته توترا، وفي أصعب وأحلك الحوادث التي يجابهها، ولا يتخلى عن أمله أبدا ولا يلفه اليأس مطلقا. وكم من معان عميقة تكمن في توجهه نحوه تعالى عدة مرات يوميا ضمن هذا الإطار محاولا أن يرى ويسمع بقلبه ما وراء هذا العالم المادي. والذي يذوق فضل ونعمة مثل هذا التوجه لا يستطيع ترك ملازمة عتبة بابه تعالى. وحتى وإن لم نستطع الوصول تماما إلى مثل هذا الفضل، نتوجه للمرة الأخيرة نحو باب حظيرته، ونلمس مطرقة الباب لنتضرع وندعو بقلب يئن:

أيها الموجود الأزلي الذي هو سبب وعلة وجودنا، وروح أرواحنا! يا من نوره ضياء أعيننا وأبصارنا! لو لم تنفخ الروح في أبداننا لبقينا حمأ

مسنونا، ولو لم تهب النور لأعيننا كيف كنا نستطيع فهم وتقييم الكون من حولنا، وكيف كنا نستطيع معرفتك؟ لقد أوجدتنا مرتين... مرة عندما خلقتنا... ومرة عندما وهبت لنا الإيمان والعرفان. ولو قمنا بحمدك والثناء عليك بعدد ذرات الكون لما وفّينا حقك من الشكر.

يا أجمل من كل جميل! ويا أبهى من كل بهي! يا من تظهر صور الجمال في كل آن وحين، وتستر ما يبدو قبيحا حتى تضفي عليه مسحة نسبية من الجمال! نتضرع إليك أن تملأ قلوبنا بمشاعر الجمال وأحاسيسه، وأن تبصرنا بطرق الجمال ومسالكه على الدوام.

يا أرحم من كل رحيم! يا من لا تعاقب المسيء فورا، بل تمهل وتتغاضى عمن يتجاوز حدّه، وتترك له فرصة لتنقية قلبه من الذنوب والآثام المعنوية! احفظنا يا رب من التلوث بالآثام وبالذنوب، واغفر لنا عندما نتلوث ببعضها، ولا تحرمنا من مغفرتك ومن رحمتك ولا تبعدنا عنها. كنا عدما فأوجدتنا، ونحن مستمرون في الحياة بفضلك وبلطفك وبجودك وإحسانك، محاطون على الدوام بجودك وبإحسانك وكرمك. أنت يا رب من يمنح النور لعقولنا، ولذةَ الإيمان لقلوبنا. كان العقل في تشوش وتخبط حتى وصل إليك، وكانت النفس تعدو وراء البغي. وعندما جعلتَ العقل مرشدا وهاديا لجمت به أهواء النفس وفتحت أمامها أفق الاطمئنان. لقد وَجدنا أنفسنا بفضلك، وتخلصنا من الضياع هنا وهناك في الدروب بلطفك.

ما وصلت قلوبنا إلى الاطمئنان إلا بمعرفتك. وما تخلصت أفكارنا من الهذيان القاتل وانسلّت منه إلا بالاستسلام لك. أتينا إلى بابك وطرقناه بذلة وخضوع، ندعوك أن تديم هذه الذلة لك إلى أبد الآبدين. اسمك على الدوام على شفاهنا عند دعائك، وننتظر بِرَهْبة وخشية جوابك. لم يسمعنا حتى اليوم سواك، ولم يربّت بشفقة على رؤوسنا أو ينظر أحد سواك إلى وجوهنا. كل ما وجدناه كان من عندك وحدك. وبفضل الإيمان بك تخلصنا

من مشاعر الغربة والحيرة والذهول، ومن آلام الوحدة والوحشة، لذا نتوجه إليك مرة أخرى بكل كياننا نطلب منك العفو والعافية.

نعوذ بك من قساوة القلب، ومن الاستناد إلى غيرك، ومن الغفلة ومن الإهانة والهوان، ومن المسكنة والجهل، ومن علم لا ينفع، وقلب لا يخشع، وعين لا تدمع، ونفس لا تشبع، ومن دعاء لا يستجاب له، ومن زوال النعم، وتغير الألطاف، ومن عذاب عاجل وغضب ماحق.

ندعوك أن تهب لنا لسانا ضارعا، وقلبا خاشعا. اقبل منا يا رب توبتنا، ونقنا من خطايانا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس، واستجب لدعائنا، وافتح آفاق قلوبنا، وألزم ألسنتنا كلمة الصدق، وطهر قلوبنا من الدنس يا رب! وهب لنا يا رب ثباتا في أعمالنا، وعزما وقرارا في طريق القرآن، وحساسية تجاه نعمك. لا تُرجِعْ يا رب من يدق بابك خائبا، وتفضل بنعمك وألطافك على عبادك الطائعين، واهد من عصاك وضل عن سبيلك. وزين دعاء المضطرين بالاستجابة لهم، وساعد أصحاب الكرب، وعالج أصحاب القلوب المريضة وهب لهم الشفاء، وأظهر نورك للذين يتخبطون في ظلمة الكفر والإلحاد كي لا تبقى فيهم أي نقطة أو ركن مظلم.

الكعبة

الكعبة هي المحراب المشترك لنبضات قلوب المؤمنين، والتي تم تمجيدها وبيان فضلها عند وصفها بأنها "أول بيت وضع للناس". وضع خطط أسسها وقواعدها فيما وراء هذا العالم، وبُنيت بيد أطهر نبي في وقت لم تكن مواد البناء من لبنات ومواد رابطة قد عرفت أو استعملت في الأرض.

تقرر موقعها وموضعها قبل نـــزول آدم عليه السلام إلى الأرض وتشريفه لها بأعوام وأعوام، إلى درجة أن الملائكة أخبرت يوما آدم عليه السلام بأنها طافت حول الكعبة مرارا قبل خلقه. وبعد الطوفان وحسب الآية الكريمة: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(البقرة:١٢٧) قام أبو الأنبياء إبراهيم وابنه الكريم إسماعيل عليهما السلام برفع بنيان هذا البيت الذي كان قد تهدم وسوّي بالأرض من جديد.

إن الكعبة التي هي عبارة عن مقطع مجسم لعمود نوراني يمتد من مركز الأرض إلى سدرة المنتهى والتي لا يفتر الإنس والجن من الطواف حولها في كل وقت وحين تشتاق إلى حريمها مليارات من الأرواح الطاهرة، المرئية منها وغير المرئية، تود وصالها. أيْ أنها بناء لا مثيل ولا نظير له. فإن قلنا بأن قيمتها تعادل السموات لم نقل شططاً. فاسمها في الأرض وفي الســـماء هو "بيت الله".

في كل عـــام يهرع المؤمنون إلى جوهـــا الروحاني الدافق والدافئ من أرجاء الارض بالطائرات أو الســـيارات أو البواخر، ومنذ بداية رحلتهم يضعون جانبا جميع مشاغلهم اليومية وجميع مشاكلهم وأســـباب قلقهم

ويتخلصون منها. وبعد أن يلتحفوا لباس الحج الأبيض الطاهر يصلون إلى درجة ونوع قريب من الملائكية يغبطون عليها.

في هذه الرحلة المباركة يحس معظمهم بأنهم يتجولون في دهشة وذهول في سواحل عالم آخر ودنيا أخرى. تراهم مرة في وقفة وقورة كوقفة شجرة دلب ضخمة، أو وقفة مهيبة كهيبة غابة صامتة، أو وقفة تذكرك بعظمة البحر الزاخر... ولكنك لن تعدم ملاحظة صفة عامة فيها، ألا وهي صفة الإخلاص والصدق.

الطرق إلى الكعبة طويلة، والمسافات شاسعة ومرهقة. فكما أن طريق التصوف والسير فيه، ومجاهدة النفس وتطهيرها، وكذلك سفوح وتلال ما يحيط بالجنة، والوديان القريبة من جهنم حافلة بالمشاق والصعاب، كذلك فلهذه الرحلة المباركة متاعبها. ولكنها شرط ضروري لزيادة التهيؤ الروحي ولتكملة الاستعداد الداخلي. فكل إنسان يهيئ نفسه في خلال هذه الرحلة ويمتلئ حسب استعداده وقابليته. فلا يصل إلى هناك إلا وقد استعد وتهيأ بزاد كبير.

كانت هذه الرحلة المباركة تتم في السابق على ظهور الخيول والإبل. ويصادف كل حاج في طريقه عشرات الأضرحة والمقابر، ويزور الأماكن التي عاش فيها الأنبياء العظام ويعيش ويتحاور مع خيالاتهم، ويشترك في مجالس الأولياء والأصفياء، فيقتبس منهم نوراً لقلبه، أي تكون رحلته هذه رحلة عامرة بالمعاني، ويتسلح روحه ويتطهر وكأنه اغتسل في محراب الجمال والشعر والرومانسية، فيكون مستعداً لجميع الإلهامات والعطايا الواردة من عالم المعاني، ومستعداً بعد ذلك لطرق باب الحق تعالى.

وبعد أن تتفاعل ما أحس به وحدسه ورآه وما شاهده طوال رحلته في أعماق قلبه وروحه، وتنقلب إلى قابلية فهم وحدس يصل إلى الكعبة -التي

تنتظر زوارها بشوق وتنظر اليهم وقد تطاول رأسها إلى ما وراء السماوات– ويضع نفسه في شوق شديد في أحضانها.

أجل!.. إن كل قلب يشاهد المنظر الوقور للكعبة وظلّ جبهتها النورانية المنعكسة على المرمر، والمعاني التي تمثلها والتي تسمو وتتطاول نحو السموات، وجوها الذي ينبثق نورا، لا بد وأن يلمس بعض المعاني الخاصة الموجودة وراء منظر الكعبة، ويحس بلذة الهدف الذي من أجله قام بهذه الرحلة، وذلك في جو من نشوة العبادة، فيصل إلى سعادة بارتشاف لذة لا توصف.

إن الكعبة ملائمة لموضعها إلى درجة أن كل من ينظر اليها بدقة يكتشف وجود رابطة قوية بين موضعها وموقعها وبين روحها ومعناها. فكأنها لم تُبْنَ بمواد بناء من الخارج بل انبثقت من جوف الأرض، أو كأن الملائكة بنتها في السماء ثم أنزلتها إلى الأرض. وهي تبدو وكأنها تقود حلقة ذكر بين الجبال والتلال وأكوام الحجارة الموجودة بالقرب منها والتي أحرقتها الشمس، وكأن الوجود حولها يئن بأنينها وترفع أيدي الضراعة نحو السماء ثم تصمت وتستمع إليها في خشوع.

الكعبة حريم مفتوح لأسرار الصديق، وما حواليها مضيف مفتوح للغير. والصفا والمروة بمثابة قمرية لمشاهدة سماء الحقيقة وتأملها. وعلى بعد خطوات هناك المقام الإبراهيمي كسلّم نوراني يقود إلى ما وراء الأفق. ثم بئر زمزم وكأنها ساقي الشراب في مجلس العشق الإلهي. وعندما يقوم كل هؤلاء معا بتحية المسافر العاشق، يحس ذلك المسافر بأنه انتقل إلى عالم آخر... إلى عالم أخروي، فيبدأ بالتطلع إلى "عالم الملكوت" من خلال النوافذ التي فتحت في قلبه، وتأخذ أشرعة خياله بالإبحار إلى آفاق رحبة وبعيدة، حتى يخيل إليه أنه لو خطا خطوة أخرى لوجد نفسه في ذلك العالم الخيالي الأزرق الموجود خلف الآفاق البعيدة وراء هذا العالم.

الكعبة بناء أرضي بنيت بمواد بنائية موجودة حواليها، ولكنها تبدو

كزهرة نبتت في حضن العماء[1] وامتدت جذورهـــا منها واحتضنت في روحها أســـرار كل الوجود، وكأن هناك علاقة -حتى وإن كانت غير مباشرة- بينها وبين الأرض والسماء. إنها بناء تاريخي عتيق وقديم بل هي أقدم بناء وأكثرها عراقة ضمن جميع العهود والأدوار وأكثرها أصالة. إنها درة تاريخية تضاعفت قيمتها حية وجديدة ونابضة في القلوب. وكما كان آدم عليه السلام أهم مصدر من ناحية خلق وطباع جميع الأجيال التي جاءت من صلبه، كذلك الكعبة، فهي بيت في الأرض يحمل أسرار وغموض روح البناء ومعناه.

في حريمها تشم الأرواح المنفتحة على الحقائق في كل وقت الروائح الفردوسية المنشية التي تهب من جميع الجهات. والذين يهرعون إليها من جميع أصقاع العالم، ما أن يروها حتى يغيبوا عن أنفسهم ويبدأوا بالطواف حول هذا المحراب العام طواف الفراشة حول النور باحثين عن طرق الوصول إلى المصدر الحقيقي للأنوار. ومع أن الطواف الظاهري لأهل القلوب هو حول الكعبة، إلا أنه يجري في الحقيقة داخل حلزون نوراني مستند إلى القلب يغيب في المكان ويتلاشى.

الأرواح العاشقة التي تصل إلى أنس الكعبة وجوها العبق، وتحقق الوصال معها، تصل إلى بعد أعمق في فكرها العميق أصلا، وتحس بسحر الكعبة وتشعر به بشكل أقوى وبمذاق آخر.

الكعبة في نظر أمثال هؤلاء مكان عند الحضرة الإلهية. ومعناها وروحها وجوهرها في نظر الإنسان هو كأستاذ ناصح للإنسان مرشد له يهمس في قلبه شيئا ما على الدوام.

لكل وظيفة ومهمة حول الكعبة سحر خاص. ولا يمكن للقلوب المؤمنة

---

(١) العماء: صفحة الوجود فيما وراء الأثير، أو الحالة البدائية للسماوات عندما كانت مجرد غبار وغيوم. وفي التصوف: تجلي الواحدية.

ألا تبقى تحت تأثير هذا السحر. فالأرواح الطائفة حولها في كل لحظة، والتي تزداد في كل حين حتى تغدو كسيل هادر يملأ كل ما حواليها تنسى أنفسها في دوامة هذا السيل وفي دوامة مشاعر الحب والوجد والتوله، وتجد أنفسها في عالم روحاني لا يمكن وصفه. وهناك في ذلك العالم الروحاني يحس كل واحد أن كل دعاء وتضرع وتوسل تعبير عن أشواقه ولهفته، ويجد أن أخفى مشاعر قلبه تجد طريقها إلى لسانه بأخفى الكلمات وأكثرها سرا... عند ذلك سيتذكر طوال حياته أحاسيسه هذه التي اتحدت في ظل تلك الأصوات والأضواء والموسيقى والتي أوصلته إلى لذائـــذ لا توصف ويصعب بلوغها، ويحتفظ بها كأعز وأثمن وأدوم الذكريات في حنايا فؤاده.

الروضة المطهرة

الروضة هي البناء الوحيد الذي يُسمعنا روح وجودنـــا في الدنيا. إن علاقاتنا بهذه البناية المباركة، وروابطنا القلبية معها تثير في قلوبنا مشاعر قدسية مرهفة إلى درجة أننا عندما نريد ذكر شيء عنها نرتجف خوفا وكأننا نتكلم عن رمز للعفة والطهارة ونخشى أن تبدر منا كلمة غير مناسبة يساء تفسيرها. وكل روح يلتجئ إلى عالمها المضيء يسمع في أعماق وجدانه قول الشاعر:

إياك أن تغفل هنا...

عن الأدب والتوقير...

هنا مقام حبيب الله...

مقام المصطفى...

محط النظر الإلهي...

يسمع صدى هذه الكلمات في وجدانه فيرتجف. كانت مكة طوال التاريخ البشري -عدا فترات استثنائية قصيرة- محراب الإنسانية. وترجع هذه الميزة لمكة المكرمة إلى وجود الكعبة فيها. لذا فالكعبة هي محراب... بل سلطان المحاريب. ولهذا المحراب المجيد منبر -على صاحبه الصلوات والسلام بقدر ذرات أجسادنا- وهو الروضة المطهرة التي هي أطهر من رياض الجنة وبساتينها.

تأتي الروضة بمعنى الحديقة الزاهرة. وهي بالنسبة للمؤمنين الذين يحسون

بعلاقات معينة مع الأشياء المباركة، وما ينتج عن هذه العلاقة من مشاعر وأفكار وتصورات وتلقيات مختلفة ومتغيرة على الدوام ضمن دائرة "الفن- المعبد" ومطاف الأرواح المقدسة، تشكل حظيرة القدس.

تغير المظهر الخارجي لهذا المكان الطاهر من الناحية المعمارية والفنية عدة مرات وتبدلت نقوشه الخارجية، ولكن لم تمتد أي يد لتغيير ما يتعلق منه بعالم القلوب، ولا يمكن أن تمتد.

هناك أبواب كثيرة تنفتح نحو صاحب الروضة الطاهرة مثل انفتاح القلوب والصدور المتمزقة بحبه، ومنافذ كثيرة كالمنافذ الكثيرة التي تفتحت من روحه للإنسانية كلها. وأشهر هذه الأبواب هو "باب السلام" الذي قال فيه الشاعر "نابي":

هذا الهلال في السماء...

عاشق ولهان لباب السلام...

فالذين يسلمون عليه وهم يلجون من هذا الباب يدخلون إلى جو وعالم من الروح وكأنهم سيلاقون سيد القلوب بعد خطوتين... يحسون بهذا ثم يدعون أنفسهم في مهب نسائم خاصة ومختلفة.

الذين يصلّون ويتعبدون بالوقار الذي يحتمه وجودهم في حضرة النبي الكريم وبالجد والمهابة اللازمة ويدعون ويصلون عليه يرون أنفسهم وكأنهم يمشون في ممر نوراني بين أصحاب القلوب المتولهة بحب الله ورسوله الكريم. وبهذا الشوق واللهفة يتقدمون نحو "المواجهة"،[1] وهم يتوقعون في كل خطوة مفاجآت لا تخطر على البال ولا على الخيال. وآه عندما يصل إلى "المواجهة"!! آه!! لا ترى عيون أصحاب الأرواح النزيهة هنا شيئا غير ذكراه... يذكره كل منهم ويئنّ!.. ولا يجد السلوان إلا في ذكراه. فإن كان

(١) المواجهة: هي المشبك الحديدي الذي يحيط بقبر الرسول ﷺ من جهة القبلة. (المترجم)

قد تهيأ مسبقا، ووضع في الخيال رأسه فوق تلك العتبة وجاء إلى ذلك المكان بعمق وجدانه ووسعة قلبه فلا تسأل عن حاله. هنا يعجز البيان عن التصوير وتخرس الألسنة عن التعبير، ولا يجد الإنسان كلمة واحدة غير التعبير عن هذا العجز.

عندما يصل الإنسان إلى سُترة المرقد -الذي تتخيل بسمة حزينة عليها- من جهة القبلة يواجه المئات من أصحاب القلوب العاشقة التي تنبض نبضا بالأمل والرجاء. فيحس أنه في جو ساحر من إقليم النور الذي يفتح أمامه باب عالم آخر حسب درجة كل إنسان. وكل من يصل إلى "المواجهة" من أصحاب القلوب العاشقة يحس بأنه سيلاقي حبيبه بعد خطوة أو خطوتين وسيحتضنه، فيثور قلبه في ظل هذه المشاعر، ويسمع في أعماق قلبه أنغاما لمشاعر شوق وعشق لم يخطها قلم ولا سال بها حبر على ورق. ثم إذا بتداعيات ذلك الجو والإقليم الذهبي تلف كل كيانه بأصوات وكلمات وخيالات لا تعد ولا تحصى، وتجذبه إلى عالم آخر فوق الزمان. وكل من يصل إلى هذا العالم يجمع يومه مع أمسه وأمسه مع عصر النور للحبيب، ويثمل من أخفى همسات مجلسه، فيكاد يغيب عن وعيه.

يمر الزمان أمام الروضة المطهرة مرور حلم أو خيال. ويكاد كل روح لم يدر ظهره تماما لصاحب الروضة قد شرب من كوثر شراب عشقه فثمل فلا يود أن يفارق هذا المكان. هنا تتوقف الأفكار وتصمت، وتدخل الأرواح تحت ظلال الأحاسيس، ويلف القلوبَ الشوقُ إلى الوصال. هنا تتفتح خيالات كالورود في أعماق الإنسان لا تقبل دخول أحد حريمها... خيالات يكاد يذوق منها صاحبها أذواق حدائق الجنة، وأذواق أصحاب الجنة واطمئنانهم ونشوتهم. كأن هذا المكان في الدنيا امتداد لمكان من وراء الفضاء صمم بيد القدرة منذ الأزل لتهييج خيالات الأرواح الحساسة وتصعيدها، وشحذ مشاعر المحبة فيها، ووضع أعذب ألحان المحبة والشوق

فيها. والذين يدعون ويسلمون أنفسهم إلى الأعماق الملونة والغنية لإقليم الإيمان سيجدون أنفسهم في بحار واسعة وغنية من التصورات، ويدركون أن هناك في الحياة التي يسلكون دروبها جانبا مجهولا من النفس، أي "أنا" آخر هو هدف بني الإنسان في الحياة، يتماوج فيها "الخفي" و"الأخفى". كأن الستار الرقيق لعالم الشهادة قد ثقب فظهرت حقيقة الإنسان كما هي مثل ظهور حقائق الأشياء الأخرى. لذا يحس كل إنسان كأنه يعيش في الحياة الآخرة، فيتبع تناغم ذلك العالم ويحس بنشوة الفردوس.

يلفنا جو العبادة في الكعبة وجو العشق والهيام في الروضة المطهرة. في الأولى نحاول الحصول على جواب لسر العبادة وفهمه، ونحتضن الأخرى بصدق ووفاء. ومع أننا لا ندرك تماما ما نحسه من أمور وأشياء هنا تمام الفهم، إلا أننا بمشاعر وجد يجل عن الوصف، وبعواطف عميقة تتلاطم في جوانبنا نحس أننا قد انتشينا في عالم سحري وشاعري خاص فنجد أنفسنا وقد انحنينا راكعين ساجدين بمشاعر لا نستطيع التعبير عنها.

تمر أيام هذه الحياة التي نعيشها هنا بين أمواج عواطف العشق والشوق الضاربة في سواحل قلوبنا كعهد وصال ولقاء. كل صرخة مكتومة وكل أنين خافت يبعث رجفة في القلوب كرجفتها عند سماع صرير الباب المفتوح على الحبيب. يئن الروح قائلا: "أنا أريد اللقاء... أنا أريد الوصال". أحياناً يبدو ثم يتلاشى خيال الحبيب من وراء عصره أمام خيال العيون المغمضة للواقفين وقفة توقير واحترام أمام باب الحبيب، الباحثين عن منفذ خيال يوصلهم إليه. هذا الباب يشوقهم على الدوام ويجدد أملهم برقة ولطف.

الجدران هنـــا والأعمدة والقباب التي تبـــدو وكأن مثاقب العشق قد حفرتها، بل حتى الأرضيات ومفروشاتها وكل شيء تقريبا لوحات جمال تذكر بألوانها الزرقاء والخضراء والصفراء ألوان الزهور الرقيقة.

والقبة الخضراء والمرقد الطاهر الذي نستطيع تشبيهه على الدوام بروح

طاهر عندما يتمازج مع أعماق عالم الفكر لدى العاشقين يتحول إلى نوع من عالم تلفه الأسرار حتى إن الإنسان يحسب هناك أن مكانه قطعة اقتطعت وجلبت من الجنة.

لقد رأيت حتى الآن العديد من الأماكن المباركة التي تحمل ذكريات روحية ومعنوية. ولكن الروضة الطاهرة للرسول ﷺ كانت وستبقى إلى الأبد صاحبة أعمق الآثار في قلبي. فقد احتضن روحي تلك البلدة على الدوام بحسرة مَنْ هدّه الشوق للوصال. وكلما احتضنها يرتفع صوت من أعماقي يقول: "هذه هي البلدة التي لن أستبدل بحفنة ترابها العالم كله".

هذه أحاسيس روح فج لم ينضج بعد. أما ما يشعر به أصحاب الأرواح السامية بالعرفان والمحلقة عاليا بالعشق فيجب أن نستمع ذلك منهم ونتعلم. وما أحاول هنا قوله هو أنني -بقابلياتي المحدودة القاصرة- أحاول فقط إثارة أهل الحمية... فإن استطعت هذا عددته وسيلة لإحراز رضا روح سيد الأنام، فأقبل لألمس مطرقة بابه متوسلا ومتضرعا: "اقبلني يا رسول الله!.. اقبلني بأبي أنت وأمي!"

المسجد الأقصى

أحياناً لا تتلاءم التقديرات الموجودة في الأرض مع القيم الموجودة في السماء. فمثلا ترى شخصا مباركا هناك وهو محتقر في الأرض، والمطاف المقدس هناك تراه تحت الأقدام في الدنيا. والمسجد الأقصى اليوم أفضل مثال على هذا.

كان هذا المعبد التاريخي المشهور مقدسا لدى اليهود والنصارى منذ القديم. ثم تشرف بكونه ثالث المساجد التي تشد إليها الرحال لدى المسلمين. عاش المسجد الأقصى عصره الذهبي في عهد النبي داود وسليمان عليهما السلام، ولم يبق اليوم شيء من هذا المعبد العائد إلى ذلك العصر الذهبي المجيد.

بعد هذين النبيين الكريمين بدأ عهد الانحلال والتفتت الداخلي في بني اسرائيل على مستوى الدولة. وكانت من النتائج الطبيعية لهذا الانحلال تعرضهم لسيطرة الأمم الأخرى وللتهجير وللنفي والأسر... إلخ. وقبل أن تلتئم جروح استيلاء الآشوريين على فلسطين والمسجد الأقصى، انسحق هذا البلد تحت أقدام البابليين وتعرض لظلم صارخ أنساه ظلم السابقين. ثم بدأت سنوات الأسر الطويلة وعهد المهانة والذل التي تخجل منه الإنسانية. ثم ظهر عهد من التجمع، ثم عهد من الاستعباد والاحتلال الروماني، أي عهد آخر من الأسر ومن الذل. وهكذا انصرمت الأعوام بين غدر العدو وتجرع آلام الاستعباد، وكذلك بين أنين المسجد الاقصى تحت الأغلال.

عاش المسجد الأقصى عصره الذهبي الثاني في عهد الخليفة العادل عمر بن الخطاب ﷺ. وبعد عدة عصور من هذا العهد الزاهر جاء الصليبيون

بكل ما في جعبتهم من الظلم والهدم والتخريب والدم والنار، فدنسوا حريمه وعلقوا الصليب على قبته. وبينما كان هذا المعبد المبارك ينتظر البطل الذي يعيد كرامة المسلمين وهيبتهم إذا به أمام البطل التاريخي صلاح الدين الأيوبي الذي قام بإنقاذه وتحريره. أما عهد الطمأنينة والسلام الأخير الذي عاشه هذا المعبد المبارك طوال الأربعة عصور الأخيرة فقد كان بفضل السلطان الداهية سليم صاحب الروح العالي والقلب النـــزيه.

كان المسجد الأقصى من قبل محط أرق الذكريات الدينية والمعجزات وأصفى المشـــاعر الروحية... أما الآن فهو كسير الفؤاد متعب قـــد لفه الصمت. أما نحن فنئنّ شوقاً إلى الوصال لعدم قدرتنا على الوصول إليه.

وجـــد المسجد الأقصى على الأرض في الشـــريط الزمني نفسه تقريبا للكعبة، وارتفع -مثله مثل الكعبة- بأمر من السماء وكأنه انبثق انبثاقا من باطن الأرض، وأصبح محراب الأولياء أحياناً، ومنبرهم أحياناً أخرى. فتح جناحيه فوق كل من دخل حريمه طوال العصور مرددا على الدوام وحتى في أظلم العهود وأحلكها: "لا ظل إلا ظله هو"، وأصبح مكانا مباركا ورمزا للأمن وكأنه "جنة المأوى" على الأرض.

هذا المعبد العظيم الذي يحمل ألف ذكرى وذكرى، وألف خيال وخيال يقف الآن وقد نكس رأسه إلى الأرض، وأحاطت بـــه الظلمات من كل الأطراف، وقد نال منه الرهق والنصب وهو يتطلع إلينا وعلى وجهه مسحة من الحزن. كلما رأيناه بهذه الحال نحس كأن مآقينا تمتلئ بدل الدموع دما، وكأن أنفاسنا تتقطع. وبينما كان بالأمس محرابا مقدســـا ينفح في نفوسنا نفحات ربانية، ومنبرا مبجلا، نراه الآن وقد قلع من جذوره وتكسرت أجنحته، وأطفئت أنواره التي كانت تشع على العالم، وتحول في يد بعضهم إلى شمعة تكاد تنطفئ، وإلى هيكل عظمي يكاد يقع وينكفئ على وجهه.

عندما نشاهد صورة هذا المعبد الحزين الذي أُبعد عن أشقائه في لوحات

الصور أو في شاشات التلفزيون، يرجع بنا الخيال إلى أيامه المجيدة، فنكاد نسمع أصوات حلقات الذكر فيه. وبينما تستعد نفوسنا للدخول إلى عالمه الطاهر، إذا بنا نتذكر فجأة حاله الحاضر من الأسر المرير، فنحس كأن نصلا حادا ينغرس في أرواحنا، أو كأن يدا قطعت وسلخت منا رئتنا. وهو بوضعه هذا يبدو كضحية مظلومة قُطّعت أوصالها إربا إربا. يبدو كإنسان حزين قد حصر بين جحود الأصدقاء وبين غدر الأعداء وظلمهم. كأنه عندما مُزّق أشلاء، ورُميت أشلاؤه يمينا ويسارا صرخ بأعلى صوته، ولكن لم يسمعه و لم يهبّ لنجدته أحد.

كلما ظهر أمام أنظارنا المملوءة حيرة ودهشة يبدو مختلفا عن السابق. كان نضرا وشابا، يجلب النظر والانتباه، أما الآن فقد بهتت ألوانه وخفتت أضواؤه. كان من قبل ذا زينة وذا دلال، أما الآن فيبدو شيخا وعاجزا. كانت قبابه من قبلُ تردد أصداء العبادات والطاعات، وتنشر عطر الروح والمعاني السامية. أما الآن فهو بنقوشه الباهتة وبصوته المبحوح، وبالاحتلال الذي تعرض له يبدو كإنسان قد انقرض وزال طالعه.

أجل!.. فبينما كان المسجد الأقصى بذكرياته العديدة الطافحة التي كانت تغني روحه المتلألئ المضيء والرزين، وبصحته وهدوئه الواسع الذي يهبّ علينا كنسيم رقيق... بينما كان مصدر نفحات إلهيـــة وكأن آذانه في السماء وشـــفتيه قد التصقتا بأسماع قلوبنا، يهمس فيها همسات الطمأنينة والسكينة... نراه الآن يخاطبنا بلسان متلعثم وبلحن حزين، فيجعل عيوننا تمتلئ بالدموع، وقلوبنا بالأسى والهمّ.

وعندما رأيت لأول مرة حاله هذه التي تدهور إليها قلت: "اواه!.. إذن فلن تجتمع بكل محبةٍ القلوب المؤمنة المملوءة بالانفعالات بعد الآن بين جدرانه التي ترددت في جنباتها أصداء صوت آدم عليه السلام، وأنفاس إبراهيم عليه السلام التي تماوجت فيما حواليها، وأذكار داود وسليمان عليهما السلام التي

رنت فيها... لن نجد بعد الآن الجو الذي أحاط بسلطان الانبياء ﷺ والذي فتح أشرعته هنا لرحلة نحو عالم اللانهاية... رحلة وصال الحبيب... لن نجد هنا الأنفاس المطمئنة الآمنة لعمر بن الخطاب رضي الله عنه التي ترددت في جنبات هذا المسجد، ولا النبرات الرجولية لصوت صلاح الدين الأيوبي التي ترددت تحت قبته. ولن نسمع بعد الآن كلمة الجلالة "الله" وهي تنطلق بكل وجد ومحبة من حناجر المؤمنين. اواه!.. إذن لن تنفتح بعدُ هذه الأبواب على مصاريعها لأصحاب القلوب المؤمنة... لن تنفتح ببطء... ولن تنفتح بسرعة... لا بفرجة... ولا بأي انفعال أو وجد، لن يستطيع أحد بعد اليوم أن يلتقي بتلك الأرواح السامية التي كانت لها أفضال وذكريات عاشوها في هذا المكان... لن يستطيعوا لقاءهم بعد الآن في حديقته، او عند نافورة ميضأته، أو تحت قبته المنفتحة إلى السماء... لن يستطيعوا بعد الآن عيش ذكريات الماضي المتداخلة مع أحلام المستقبل. لن يستطيع أحد بعدُ جَسّ نبض الأسرار في نوافذه... ولا الانغماس في خيال الربانيين وهم يسرحون في عالمه الذي يشبه سفوح الجنة.

إذن فقد انتهت جميع الأحلام وجميع الخيالات العائدة للمسجد الأقصى... لقد انطفأت جميع الأضوية التي كانت تشع حواليه، وصمتت أصوات التكبير والتوحيد والتهليل التي كانت ترتفع من قبته وتصل إلى السماوات. يقال إن للحجارة وللشجر آذاناً. فكم كنت أتمنى أن تكون لها ألسنة أيضا. أجل! فلو كان لهذا المعبد لسان، واستطاع أن يعبر عما رآه في السابق، وعما يلقاه اليوم لربما ارتعب المسؤولون عن حاله مما فعلوه، ولربما خجل الأصدقاء الجاحدون ورجعوا إلى أنفسهم.

وأنا شخصياً كلما نظرت وأبصرت كيف تم قرض معاني الروح الآتية من ماضيه، وكيف أهينت هذه المعاني وقضي عليها، أشعر أننا تعرضنا لهزيمة

مرة في جبهة القدس، فأشعر بغصة في حلقي.

فمن يدري كم من الحزن والأسى مطمور في قبته الباهنة، وفي جدرانه السوداء... وكم من الهمّ والغمّ يسيل مع مياه ميضأته... وعلى غرار الناس الذين لا يحسنون بثّ همومهم وأحزانهم، ويكاد الصمت يتحول عندهم إلى شيء خانق... على غرار هؤلاء تنظر إلينا هذه القبة وهذه الجدران نظرات اليأس مخفية داخلها كل همومها.

إن المسجد الأقصى الذي يريني مجدا تاريخيا، ويرجعني إلى ذكرياته، قد أصبح بجدرانه التي يفوح منها الحـــزن والأسى، وبقبته التي تبدو وكأنها انفصلت عما حواليها وتسامقت إلى السحاب، وبمحيطه وأجوائه وبأبوابه التي تبدو وكأن كل باب منها منفتح على بُعد آخر من أبعاد اللانهاية... يبدو هذا المسجد وكأنه غارق في الضباب، أو كأنه مجرد صورة باهتة لا لون لها.

إن خروج المسجد الأقصى من أيدينا يؤلمني. ورؤيته أسيرا بيد آخرين يذيب القلب من الكمد. وفي الحقيقة فإنني عندما أراه كلؤلؤة تحطمت محفظتها وعلبتها أحس بمشاعر المرارة والألم تتصاعد من روحي وتهزه من أساسه وتقلبه رأسا على عقب.

إنه بوضعه الحالي غريب سواء أسكبنا الدموع حوله أو صلينا في حرمه. وهو يعيش أكثر أنواع الأســـر قسوة وألما... وإذا قُـــدّر لنا أن ننهض وأن نرجع إلى أنفسنا، وتستيقظ أرواحنا فلا توجد لوحة أكثر تنبيها وإيقاظا وإيلاما وإثارة لنا من المنظر الحالي للمسجد الأقصى.

أياصوفيا

أياصوفيا أفضل مثال ملهم عن الفن المعماري للقبب الفخمة في سفوح وادي الرافدين وفي سوريا، وأبقاه على مر الدهور وأفضل تمثال لـــه. وهي تمثل أول كنيسة شرقية لها صبغة عالمية، وأكبر معبد للعالم المسيحي حتى الفتح المبين لاســـطنبول. وعندما انكسرت صولة الصليب وشوكته بين البحرين تحولت "القسطنطينية" إلى "اسطنبول"، وتحولت أياصوفيا إلى جامع. واستمر هذا حتى سنة ١٩٣٤ عندما حوّل هذا الجامع إلى متحف فسكت من فوق مآذنها صوت الأذان، ومسح عن قبتها اسم الجلالة، وقصت أجنحة هذا المعبد العظيم الذي كان قد امتزج بهوية هذه الأمة وبحياتها الروحية عصورا طويلة.

أياصوفيـــا بشكلها البسيط وبهوية أي معبد آخر هي أثـــر من آثـــار "قسطنطين" وابنه. وتعرضت إلى حرائق كبيرة ثلاث مرات، وإلى إصلاحات وتعميرات لإرجاعها إلى حالها السابق. وكان هذا حظا نحسا مثل حظها الحالي حيث يحيط بها الضـــبـــاب من كل جانب. وكان أمـــر الامبراطور "جستينانوس" ببناء هذا المعبد بكامله من الطابوق هديـــة إلى مريم العذراء عليها السلام أكبر جهد تاريخي في ســـبيل هذه الكنيسة التي تحولت إلى جامع. افتتح هذا المعبد الكبير للعبادة بمراسيم فخمة تناسب ما يحتويه من إبداع معماري داخلي ومنظر خارجي فخم ومعانٍ مادية ومعنوية كبيرة ترتجف لها قلوب الأهالي لكونه هدية إلى مريم العذراء عليها السلام. وبينما كان الأهالي يطلقون صيحات البهجة والفرح لهذه الهدية المقدمة من أجل المسيح عليه السلام، كان الامبراطور يفتخر بهذا الصـــرح العظيم ويخاطب النبي

سليمان ﷺ قائلا: "لقد سبقتك". ومن الغريب أنه لم يكن قد مر ربع قرن على الافتتاح الفخم لهذا المعبد العظيم حتى اهتز بزلزال عنيف انهار إثره جانب من قبته الكبيرة الفخمة، كما تحطم كرسي الواعظ ودواليب الشراب والخبز المقدس لدى النصارى. هنـــا بدأت التعميرات والتزيينات والنقوش الداخلية من جديد.

ولكن لم يمر إلا وقت قصير حتى تعرضت القسطنطينية إلى غزو اللاتينيين واحتلالهم الذيـــن قاموا بهدم هذا المعبد الفخم وإحراقه، ونهب النفائس الموجودة فيه. ولم يكن هذا يشكل إلا جزءً يسيرا من المصائب العديدة التي تعرض لها في تاريخه الطويل، حيث لم يجد الراحة والاطمئنان إلا عندما تحول إلى أصحابه الحقيقيين في منتصف القرن الخامس عشر حيث عاش عهده الذهبي خمسة قرون.

وفي العهد الذي تصاعدت فيه الصراعات والنـــزاعات الدينية والمذهبية التي هزّت بيزنطة من قواعدها، عانت فيه أياصوفيـــا من ناحية معنـــاها ومحتوياتها من قبـــل منتسبي دينها كل المعانـــاة، وظهرت النتائج الحتمية للسكون والخمول وعدم الحركة بأجلى مظاهرها. وعندما دخلت بيزنطة في عهد الانهدام والانحطاط، كانت قبة أياصوفيا وجدرانها تتعرض إلى الانهدام نفسه.

وبينما دخلت "القسطنطينية" في مرحلة التحول إلى "اسطنبول" امتدت يد المعماري العبقري "خير الدين" بكل التدابير الضرورية لتقوية أسسه لمنع الانهدام الذي كان مقدرا لهذا المعبد الكبير. وحسب الرواية التاريخية فقد مثل هذا المعماري الكبير بين يدي السلطان فاتح في مدينة أدرنة وقال له: "مولاي السلطان!.. لقد هيأت أسس مآذن أياصوفيا وقواعدها، فإن رغبت تحولت إلى جامع على يديك"، مظهرا بذلك أنه كان يشـــارك السلطان أحلامه. وهكذا استطاعت أياصوفيا وللمرة الأخيرة أن تنقذ نفسها على يد

معماري مسلم تركي من السقوط نحو هاوية الفناء والانهدام، حيث قويت أسسها وقواعدها، فوصلت بذلك إلى الخلود.

أدى السلطان فاتح وجيش الفتح صلاة الجمعة الأولى في أياصوفيا. ثم تعرضت أياصوفيا -وهي في طريـــق تحولها إلى جامع- إلى تطورات عديدة وإلى تكامل بإضافة المآذن وبعض الإضافات الخارجية من حواليها، وإلى تزيينات حسب الذوق الفني في عهد كل سلطان جديد حتى وصلت ضمن مراحل عديدة إلى وضعها الحالي.

ومنذ صلاة الجمعة الأولى التي صلاها المسلمون فيها دخلت أيا صوفيا قلوب المسلمين الذين بدأوا بأداء الصلوات الخمس فيها، وتمازجت مع الحياة الروحية للمسلمين إلى درجة أن اسطنبول عندما تعرضت لغزو واحتلال "أهل الصليب"[1] الذين قرروا إرجاع جميع الكنائس التي تحولت إلى جوامع إلى أوضاعها السابقة دوى صوت قوي من قبتها، فارتجت أصداؤه في أرجاء الأناضول. وبفضل هذه الأصداء استطاعت أمتنا معرفة الطرق المؤدية إلى الاستقلال، وتخلصت أياصوفيا من تعليق الصليب على قبتها. ولكن هذا المعبد الذي مُثِّل على الدوام بأجيال الروح والإرادة حتى اليوم، وبالقوة القدسية التي كانت تحملها تلك الأجيال... بينما تخلص في السابق من عالم ماديّ والتجأ إلى الروح المحمدي الممثِّل للمعنى والروح، تحول اليوم وبعد خمسة عصور من تعلّق أصحابه الحقيقيين وارتباطهم به إلى وضع بين الجامع والكنيسة، وذلك بعد أن قـــرر أصحابه الجدد الســـير في ركاب الغرب وفلسفته المادية. وهو الآن ينتظر روحا معنويـــا منقذا لـــه. ولكي تتخلص

---

(١) حدث هذا في أعقاب الحرب العالمية الأولى عندما دخلت البواخر الحربية لأربعة جيوش من دول الحلفـــاء إسطنبول واحتلتها. وأراد قواد هذه الجيوش تعليق نواقيس ضخمة على قبة أيا صوفيا، وعندما علم الخليفة الأسير وحيد الدين بهذه النية أمر حرسه الخاص أن يذهبوا إلى أياصوفيا ويقاتلوا حتى الموت لمنع المحتلين من تحقيق هذه النية. وعندما سمع الحلفاء بهذه النية أحجموا عن تنفيذ خطتهم خشية من اندلاع ثورة شعبية في إسطنبول. (المترجم)

أياصوفيا من هذه الوهدة الأخيرة التي سقطت فيها وترجع إلى بعث جديد، هناك حاجة لأبطال من أمثال السلطان محمد الفاتح، وخضر جلبي، وأولوباطلي حسن، وآق شمس الدين ممن شربوا من نبع الخضر عليه السلام. أيْ عند الرجوع إلى روح العلم الموجود في المدرسة الحقيقة، وإلى الحياة القلبية الموجودة في التكية، وإلى روح النظام الموجود في الجندية، وأخيرا إلى البطل الذي يجمع ويؤلف بين أرجل وأعمدة الاستناد هذه.

لقد امتزجت أياصوفيا بروح أمتنا، وتشربت بها، وتغلغلت في أعماقها إلى درجة أنه على الرغم من مرور كل هذه السنوات، فإن من يقترب من جوارها، ويدخل في جوها النوراني المضيء الخاص، ومآذنها الغارقة في الصمت، يحس بتداعيات معانٍ عديدة من عصورها المتنورة، وكأنها تهمس في أذنه كصديق قديم بعض الأحاديث، وتهمهم ببعض الكلمات، وتحاول التعبير عن بعض المعاني. وكلما اقتربنا نحن من جوارها نتأملها وننظر إليها كجوهرة خلفها لنا أجدادنا العظام، ونتخيل أنها تبتسم لنا وتحاول أن تخاطبنا وتهمس في أرواحنا بعض المشاعر الخفية.

أجل!.. إنها بوضعها المنعزل الحزين الحالي، ووحدتها التي يتفطر لها القلب حزنا وغما، وبجو الهزيمة التي تعمقت ألوانها بمرور الزمن، لا تزال مثل طفل يحاول جلب الانتباه إليه، والحديث عنه، وتحبيب نفسه، فتسعى لملء العيون والدخول إلى القلوب، والتحول بجو من ماضيها إلى لون وضوء وشعر ينساب في أرواحنا.

إن أياصوفيا بمنظرها شبه الضبابي، وبلونها الضارب إلى البرتقالي، وبطبيعتها الشمالية[1] هي أقرب ما تكون إلى زهرة برية غربية وليست زهرة من الأناضول. لذا ففي النظرة الأولى قد تصطدم أنظارنا، ولكن سرعان ما تلفنا وتحيط بنا ألوان أنوار الأنس بها التي نبعت من صداقة خمسة قرون بكل

(١) بمعنى أن الذين بنوها هم من الأوروبيين وليسوا من الشرقيين الجنوبيين. (المترجم)

عطرها الذي يفوح ويتماوج ويأسرنا بموجات متتالية ومتعاقبة. لذا فلا نملك إلا أن نحتضنها بكل حب ومودة، ونشمها كزهرة من بستاننا ومن حديقتنا. فإن أضفنا إلى هذا الموقع المتميز والحبيب للماضي والخيالات التي يثيرها في القلوب من أيامها التي كانت فيها شابة نضرة مضيئة، فنحاول فهم المعاني المنسابة منها إلى القلوب بعمق والشعور بها... هنـــا نراها وكأنها تبدأ تترنم بلحن ماضيها كقطعة موســـيقية تتصاعد منها الألحان مرة وتخفت مرة لتحكي أو لتصرخ بما تخفي في أعماقها من ذكريات حلوة ومرة، ومن أيام بيضاء وسوداء، وما مر بها من خير أو شر ضمن تاريخ حياتها الطويل الممتد لألف وسبعمائة سنة... تحاول هذا ولكنها لا تستطيع، فهي كشخص سُدّ فوه بعصابة قوية، فلا تستطيع التفوه بكلمة، بل تكتفي ببلع ريقها... تحاول أن تقول شيئا أو تبوح بشيء فلا تقدر. وبحزن العجز والهجر تكاد تنكفئ على وجهها كمدا وحزنا، وتتحول إلى مجرد كومة من اللبنات الجامدات.

منذ عصور وعصور تمازجت أياصوفيا مع عالمنا، والتحمت معه التحاما إلى درجة أننا نستطيع أن ننظر إليها كأثر اسطنبولي خالص بالجدران الساندة التي تحيـــط بها مـــن جميع أطرافها فتؤمن بقاءها منتصبة على قدميها، وبالإضافات الكبيرة والصغيرة في داخلها العائـــدة إلى مختلف السلاطين العثمانيين، وببقائها طوال أربعة عصور في حماية وبالقرب من قصر "طوب قابو" الذي كان مركز إدارة تلك الدولـــة العالمية. ثم كونها جارة لجامع "السلطان أحمد" طوال كل هذا الزمن، مما أدى إلى امتزاجها في جوه وعطره حتى أصبحت جزءً من عالمنا ومن دنيانا لا يمكن قطعه أو فصله عنه.

كل يوم تشرق الشمس فتنساب أشعتها موجة إثر موجة من بين مآذنها، وتلمس قبتها، وتربت عليها، وتداعبها ثم تتوجه وتصل جامع السلطان أحمد. وعند الغروب تتوجه حزمة الضياء التي تحتضن جامع السلطان أحمد مع النسائم الحزينة لما بعد العصر إلى قبة أياصوفيا لتلمسها بلطف وتمسح

عليها مـــارّة من فوق قصر "طوب قابو" قبل أن تنـــزلق وتترك نفسها للفراغ. الضوء يمر جيئة وذهابا بين هذين المعبدين العظيمين مرتين في اليوم وكأنه ينقل التحية من النبي عيسى عليه السلام إلى النبي أحمد ﷺ، ومن النبي أحمد ﷺ إلى النبي عيسى عليه السلام.

يحس أصحاب القلوب الحزينة في جو هذين المعبدين بهبوب نسيم ضبابي بارد من الشرق إلى الغرب باتجاه قصر "طوب قابو". ومع هبوب هذا النسيم يشعرون بلوعة يثيرها في أرواحهم الشـــعور بالعجز، وتغص حلوقهم فيئنون بألم. وأحياناً يرون وكأن الغيوم والضباب قـــد غطى وجه السماء. وأحياناً عندما تبلغ آلامهم درجة الخفقان تتحد هذه الآلام بعناية ذي القدرة اللاانهائية وبلطفه، وتكون كإصبع شهادة ترنو من بين المآذن التي تشير نحو الأبدية على الدوام، فيستغرقون في تأمل فريد، ويصلون إلى نشوة لا يمكن وصفها، وكأنهم عثروا على سحر يبدد يأسهم وينور إرادتهم. وبعد خطوة واحدة يخطونها يلجون من باب رحمة الرحمن المفتوح أمامنا على الدوام. ثم يتوجهون بكل قلوبهم إليه متضرعين بكل لواعج الهجران: "يا رب!.. يا مفتح كل الأبواب الموصدة!.. افتح لنا مفاتيح أياصوفيا الصدئة وأبوابها المغلقة مثلما فتحت آلاف الأبواب الأخرى، ونوِّر أرضها التي اسودّت نتيجة حرمانها من السجدات بنور السجود مرة أخرى".

الوضع الحالي الأليم لأياصوفيا يدفع كل شخص لقول أشياء مبدعة وإن كان قولا يلفه الألم. فوضعها المؤلم يشبه منظر شخص يرنو ببصره إلينا ولا يستطيع أن ينطق بما في قلبه. وكلما شاهدنا حالها هذه بدت في أعماق أرواحنا آمال عوالمنا الداخلية ورغبات من خيالاتنا. هنا تنتبه جميع مشاعرنا النائمة والغافية، وتتحفز للقائها واحتضانها في صباح يوم مشرق، ومشاهدة أحلامنا المرتسمة عليها، وندع أنفسنا في ســـيل من أحـــلام في ديـــار من الضباب والدخان.

أحياناً تبدو أصوات الأذان المرتفعة من مآذن جامع السلطان أحمد الواصلة إلى قصر "طوب قابو" وكأنها صرخات آتية من أياصوفيا. هنا نشعر بسحر يسري في قلوبنا بطعم الماضي، ونحس أننا نطير بأجنحة سحرية في سماء الأمس. وأحياناً تتسلل إلى أرواحنا أشياء عميقة مع تداعيات صوت الأذان، فيخيل إلينا أننا نستمع مع التكبيرات إلى جلبة صوت جيش الفاتح وأصوات الطبول وصرخات الحرب: "الله أكبر! الله أكبر"، ونعيش لحظات المجد تلك.

الأشجار الهرمة الموجودة حوالي أياصوفيا، والجدران القديمة، والقبب الكبيرة منها والصغيرة المملوءة بذكريات مجهولة، تثير في نفوسنا أحياناً مشاعر مبهمة... مشاعر تنقلب إلى مثقب يثقب أرواحنا، ويترك في صدورنا آثارا لا تمحى. ولكن هذه الحال لا تلبث طويلا، حيث يشرق من أفق إيماننا فجر الآمال. وكما ينهزم برد الشتاء وقرّه أمام تفتح الربيع، وكما ينحسر الليل أمام ضوء الفجر، تنحسر الغيوم السوداء المحيطة بأياصوفيا بعد كل هذا الزمن غيمة غيمة، وتتشتت لتبدو السماء الزرقاء الصافية محلها.

لم يكن الظلام في أي وقت أبديا، ولا يمكن أن يكون... ولا يمكن أن يستمر الفراغ إلى الأبد، ولا يمكن للصمت والتدهور أن يستمرا إلى ما لا نهاية... لذا فإنه حتى في أظلم لحظة من هذا الليل البهيم الذي نعيشه... هذا الليل البعيد عن آمالنا... حتى في هذه اللحظة لم تنعدم أنوار تطرف بعيونها لنا، وتومئ لنا من بعيد... وأنفاس إلهية تملأ أرواحنا وتشرح صدورنا... ونسائم تقوي عزائمنا... لم تنعدم ولا يمكن أن تنعدم في أي حين من الأحيان.

في هذه الأيام وفي مختلف أرجاء هذه الأرض مواسم الربيع المتفتحة... كل ربيع أزهى من الآخر وأجمل!.. ولا شك أن أياصوفيا ستأخذ نصيبها من هذه الخضرة التي بدأت تنتشر في كل مكان، فهذا شيء طبيعي. ولم نفقد نحن هذا الأمل في أي وقت من الأوقات طوال أيام البعد والهجران التي عاشتها وتعيشها أياصوفيا. لم نفقد هذا الأمل، بل بدأنا وكأننا نرى أبوابها وهي تنفرج قليلا قليلا، ونحس أننا نعيش أيام أفراح وزينة واحتفالات.

كل يـــوم يمر هناك أصوات تتقوى، وصدور تنبض أكثر بالانفعال، وأرواح تترابط في هذا الموضوع بقوة أكثر، ورغبـــات تفور، وإلهامات تنـــزل إلى قلوبنا وتصعد مثل شفاه دافئة، وآمال وأشواق وأفراح حلت محل الألم والهجران... وكلها أمارات لا تكذب على الفجر الصادق.

أياصوفيا التي اصفرّ وجهها وهت من بكاء الألوان والأنوار، وانهدت طاقتها بعد كل هذه السنين العجاف... أياصوفيا هذه حملقت على الدوام بنظرات واهنة تحمل كل معاني العتـــاب في وجوهنا. وطوال أعوام عدّة انتظرت بكل ما حواليها من حزن منعكس على الزهور الباهتة اللون وعلى نافورات الوضوء المترقرقة بحزن، والطيران الحزين للحمام البري... انتظرت على الدوام البطل الذي ينقذها.

ونحن نؤمن بعد كل لوحات الحزن هذه، وفي الليل الضبابي الحالي الذي يلف كل شيء... نؤمن بأنه: "اشتدّي أزمة تنفرجي"... وننتظر ان تنفتح أبواب السماء فجأة على مصاريعها، وتنهمر الأنوار والآمال على قلوبنا من وراء الآفـــاق... أشـــجار الدلب والصنوبر المتطأطئة رؤوســـها حزنـــا ستنتعش وتتمايل بفرح ونشوة... وبكل مظاهر الفرحة والبهجة التي ستلف أجواء أياصوفيا آنذاك ســـيزول الضباب الجاثم على صدرها ويختفي... والخلاصة أننا بانتظار أضواء وأنوار ســـرية تخرق ظلام هذا الليل البهيم لتضيء لنـــا الدروب المؤدية إلى عهد الورد والياسمين... نحن بانتظار أمثال محمد الفاتح وألو باطلي حسن وخضر جلبي وآق شمس الديـــن... لنا مثل هذه الآمال والأحلام.

عيوني دامعة يا أياصوفيا...
وفي قلبي بحر من الأحزان...
آن لك أن تفتحي لنا أبوابك...
آن ذلك يا أياصوفيا...

القرآن – ١

هو أكثر منابع النور بركة في الوجود، وأسحر كلام وأكثره نفاذا إلى القلوب. كل أنواع الجمال الأخاذ الموجودة على سطح الأرض ظل لنوره الموجه نحو الوجود، وأكثر الأصوات والنغمات سحراً ليس إلا سلما واحدا أو نغمة واحدة من تلك الأنغام والأصوات السماوية، ونفس من أنفاس الوجود وهمسة من همساته. والتنـــزه بين آياته النورانية، وكلماته المضيئة تغسل الأدران عن القلوب والآثـــام عن العيون وتطهرها. إن تأمل الآفاق الزمردية البعيدة التي يفتحها، ينثر بذور الحكمة في العقول، وينقلها إلى سماوات وراء الأفق.

الشمس بالنسبة لعالمه النوراني مجرد حشرة مضيئة، والقمر مجرد أرض قفراء وسوداء وقع بعض الضوء على وجهه. هو بلمعانه الظاهري، وعمقه الداخلي، وغنى محتوياته مائدة آتية من وراء السماوات... مأدبة لا يستغني عنها أحد حتى الملائكة الكرام التي حملتها وتسلمتها من يد ليد كباقة من الورود العطرة حتى وصولها إلينا.

استقبلت الأرض وساكنوها هذه المائدة الإلهية بشاعرية عالية، وأشواق لهيفة، وبحاجة ملحة. وانقلبت أرجاء هذه الأرض العجوز بورود هذه المائدة الإلهية ورياحينها إلى ما يشبه سفوح الجنة. عندما لم يكن موجوداً كانت أرضنا هذه أرضاً يلفها الظلام. وعندما هلّ على الأرض غرقت سهولها وجبالها ووديانها بالنور الذي يشع منه إلى كل جهة، وأصبحت أرضنا كتاباً

يُقرأ ويتأمل. أما حقائق الأشياء التي يشرحها ويقدمها لنا فكأنها خطاب يملأ أرواحنا ويسقيها.

وُهبت له وحده نعمةُ الإرشاد إلى طريق سعادة الدارين، فالمفتاح الذهبي للسعادة في يده هو. لو لم يقم بحل الألغاز التي تقابلنا في كل مكان وتحيرنا، لبقينا في دائرة الحيرة أمام هذه الألغاز التي لا تعد ولا تحصى، وفي دائرة التيه، ولما استطعنا الوصول إلى انسجام بين أفكارنا وبين مشاهداتنا. ولو لم يهب لنجدتنا لضعنا في تيه هذه الصحارى الشاسعة التي لا يبلغ النظر مداها.

يا أيها الروح الذي أحيا موات دنيانا بأنفاسه الطاهرة... لو لم تكن لما كانت دنيانا إلا جحيماً لا يطاق... أنت من يمثل رحمة الحق تعالى على هذه الأرض... أنت من يمسح ظلمات الإنكار والإلحاد من القلوب... لم تتعلم الإنسانية الهداية إلى الصراط المستقيم وسلوكه إلا بك... تعلمت الإنسانية هذا فتخلصت من الفوضى، ومن الضياع في الدروب.

بك خفّ ظلام البشرية...

بك تنوَّر الوجود...

أيقاس بنورك البدر؟

يا نور الهداية!

أنت شمس ليلة القدر...

(الشاعر إسماعيل صفاء)

تكلم الآن واهدر بصوتك! لكي تحيا القلوب الضائعة والمتلهفة لكلامك. تكلم لكي يصل الشهد والعسل إلى الشفاه وإلى الأفواه. ولكي يتفتح الأترج النضر في القلوب كأولى ثمرات نضجه.

ولكن أنظر ماذا جرى لهذا البلد الذي تشرف بنـــزولك عليه شرفاً لا يدانى، والذي انقلب بك إلى جنات عدن... لقد تعرض لهجوم الأشواك

وأشجار الزقوم. أما نورك الذي كان ينير أرجاءه فقد رحل إلى ما وراء البحار... لا ندري لماذا... ألكي نتعذب ونمتحن؟

تعال أيها النور!.. تعال!.. لقد آن أوان انتهاء أحزاننا وآلامنا، فتعال!.. فقد طال فراقك وطـــال غروبك عنا... نحن لم ننسك أبداً... في هذا البلد الذي أقفرت أرضه وأظلمت سماؤه لا تـــزال هناك معابد يؤمها الفقراء والمساكين... لا يـــزال عبيرك يملأ أجواء هذه المعابد... ولا تزال القلوب تستضيء بنور مشاعلك.

أيها النور الـــذي نـــزل في مكة وفاض في المدينة المنورة... ليس من شأنك الاحتجاب، فلتفصح عن وجهك النوراني... انـــزع النقاب لكي تـــرى العيون -التي حاصرتها مشـــاهد القبح- جمالك... ولكي نطوف ملهوفين حول شموعك مرة أخرى.

أيها الخطاب الأزلي...

أيها النازل من العرش...

أيتها النفحة الإلهية...

لقد نورت بنـــزولك قلب محمد...

(الشاعر إسماعيل صفاء)

انـــزل أيها الخطاب الأزلي الإلهي... انـــزل وكأنك نازل من العرش... انـــزل لكي تستفيق القلوب وتتفتح عيونها على العالم الأحمدي النوراني مرة أخرى. أيها النور الذي تجليت في قلب فخر الكائنات، أيها الكتاب الذي كنت مرآة لوجهه الحقيقي الـــذي تخجل منه الشموس... اهتف بأرجاء الأرض... اهتف لكي يتردد صوتك في الخافقين... ولكي تمتلئ السماوات بأنفاسك... اهتف لكي يصمت الخطباء المزيفون، ولكي تخرس الألسن الزائفة.

مرت أعوام طوال عجاف والإنسانية تستمع إلى أوهام وضلالات حتى لم تعد تفهم الحقيقة ولا تدرك الصواب. ولطول سيرها في الظلام أصبحت خليلة للخفافيش وعقدت صداقة معها. فمتى تحل عقال لسانك لتسمع أرواحنا الشلالات الهادرة بجواهر كلامك... دع أنوارك تنهمر على دنيانا لتتخلص الإنسانية من الظلام الذي تعيش فيه منذ قرون وعصور. انفخ في صورك -كنفخ إسرافيل في الصور- واملأ أرجاء الدنيا بهدير صوتك... افعل هذا لكي يستيقظ الغافلون من نومهم، ويرجع أصحاب الأرواح الأنانية إلى صوابهم، ولكي يرتعب الذين تعودوا على الترف وعلى الكسل، ولكي تنفض الأرواح الخبيثة التي تسللت إلى كل مكان، واحتلت كل موضع.

انهمر علينا كالمطر وكالغيث، فقد جفت نفوسنا وشفاهنا، وبلغت القلوب الحناجر. هبّ علينا كريح الصبا حاملا إلينا عطر العرش، فقد تكدرت الأرواح من روائح المعصية حتى كادت تتقيأ.

اركبْ على متن الصواعق وأرسلْ دويّك إلى أرجاء الأرض لكي تهرب الحشرات التي استولت على الأرض وتدخل إلى جحورها.

كيف ستكون حالنا إن لم تهطل كالغيث، ولم تهدر كالصاعقة، ولم تسحق سحق الصاعقة؟ وكيف ستكون حال الإنسانية؟ وكيف تستفيق هذه الأمة وتنهض؟ وكيف تخطو المدارس إلى الأمام؟ وكيف تتنور المعابد؟ وأين سيجد القلب والروح والعقل ضالتهم؟ وأي شيء يستطيع أن يكون بَلْسَماً لهذه الأرواح البائسة والقلوب المكلومة وشفاء لها؟ وكيف تستطيع هذه الأرواح المشلولة أن تبسط أجنحتها وتطير؟ وكيف يستطيع العقل فتح الطرق المسدودة أمامه فيرشد الفكر إلى طريق الأبدية؟

العالم الذي لا توجد أنت فيه عالم قُصّت فيه أجنحة الإرادة. وضربت الفوضى اطنابها في عالم الأحاسيس، وتحولت فيه العواطف البشرية إلى

مستنقع. أما الموازين العقلية فدون ضوابط، والمنطق مهرج والعلم حماقة. في مثل هذا العالم يكون من العبث البحث عن قيم إنسانية وينخدع كل من يركن إلى هذا البحث.

تعال!.. تعال!.. أرسل نفحة عطر من أنفاسك، وشتت جميع مقالب الشيطان وألاعيبه، ودُلّنا على طريق التوبة التي تم إرشاد آدم عليه السلام إليها.

القرآن – ٢

هناك العديد من المفكرين المعاصرين الذين يرون بأن العصر القادم سيكون عصر القرآن. والحقيقة أننا إن دققنا قليلاً لرأينا أن عصرنا الحالي بدأ يتجه للقرآن بسرعة أكبر مما كنا نتوقع أو نتصور.

أجل... حتى أصحاب أكثر النظرات بلادة وسطحية يستطيعون حدس كيف أن القرآن مرتبط بالكون ومتداخل معه، وكيف أن جميع بياناته حول الوجود صائبة، فلا يملكون أنفسهم من الإعجاب بقوة تأثيرها ونورانية عالمها.

والذين يعملون في ساحة العلم والعرفان والحكمة يطالعون هذا الكتاب العظيم بكل رغبة ولذة ويشهدون بأنه يشرح أسرار الوجود والأمور الدقيقة الموجودة في روح الطبيعة ويضعها أمام أنظارهم.

إن القرآن هو الذي يتناول كل جزء من أجزاء الوجود بعمق، فيوضحها ويشرح غاياتها ومحتوياتها وأسسها بشكل لا مجال فيه لأي تردد أو شبهة.

يتناول القرآن المعجز البيان أيضاً الحياة القلبية والروحية والفكرية للإنسان وينظمها ويريه أسمى الغايات والأهداف، ثم يأخذ بيده ليوصله إلى هذه الأهداف، ويوصيه بالتعامل معها بكل لطف ورحمة وشفقة وعدالة، ويضع بينه وبين السيئات والشرور عقبات وموانع لا يمكن تخطيها.

القرآن هو البيان الإلهي الذي يقيم النعم الإلهية المعطاة للإنسان كالصحة والعافية والقابلية والقوة أفضل تقييم، ويشير إلى أفضل الطرق للاستفادة

المثلى من هذه المواهب والهبات، وينقذ الناس دون أن يشكل بعضهم لبعض مشكلة أو عبئاً.

إنه كتاب ومنبع للضوء بحيث يقدح في أرواحِ مَنْ عشقه واتبعه فكرة الحرية ومفهوم العدالة وروح الأخوة والرغبة في مساعدة الآخرين ومعاونتهم والعيش من أجلهم، بحيث يكاد يجعل من هؤلاء -المخلوقين من دم ولحم- شبه ملائكة يسعون في الأرض، ويريهم الطريق المؤدي بهم إلى سعادة الدارين، ويفتح أبواب هذه السعادة على مصاريعها أمامهم.

إنه كتاب إرشاد يسير أمام الذين فتحوا أعينهم على الحقيقة بهدايته، ويأخذ بأيديهم ليسيح بهم وراء الآفاق ووراء هذا العالم. ويجول بالقلوب المشبعة بالاطمئنان في أجواء المهابة، ويسكر الأرواح المفكرة بالإعجاب والدهشة والذهول ويشملها، وينفح في الضمائر الطاهرة نفحات الخير في كل آن.

هو بيان باهر إلى درجة أنه يعد هذا الإنسان -الذي أرسل إلى الدنيا بأسمى روح وفي أحسن تقويم- بأفضل صورة من صور السعادة والهناء، وبأفضل شكل من أشكال السمو والعلو والرقي، وأكثر أنماط الحياة إنسانية بأقوم الطرق للوصول إلى ذروة "الإنسان الكامل".

ألم يكن هذا الكتاب المجيد هو الذي نظم حقوق الفرد وحقوق الجماعة، ونظم العلاقة بينهما من ناحية التعامل والسلوك والوظائف والمسؤولية؟ ألم يعين المفاهيم الصحيحة لحقائق الحرية والعدالة والمساواة وحققها بخطوة واحدة بينما كان العالم أجمع يسبح في دياجير الظلام والغفلة والضلالة؟ ألم يحقق أفضل صراع ضد الظلم والطغيان؟ ألم يدعو إلى رحمة وشفقة إنسانية، بل إلى رحمة وشفقة تشمل جميع الأحياء؟ ألم يضع للحرب وللصلح مقاييس إنسانية فجعل أتباعه دعاة وممثلي الأمن والاطمئنان فوق الأرض ورموز التوازن فيها؟

يا لـه من كتاب نوراني يذكّر الإنسان بعجزه وفقره من جهة، فيكسر

حدة غروره وأنانيته، ويشعل فيه من جهة أخرى أشواقه، ويدعوه لأن يشرع أشرعته للرحيل إلى ما وراء هذا الأفق.

يا له من مجموعة نفحات ربانية يؤمِّن كل أمر فيه آلاف الفوائد، ويذكرنا في كل نهي بأضرار لا تخطر على البال، ويأخذ بيدنا إلى سفوح الأمن والأمان. وفي اللحظة التي يثير قلوبنا برسائل العدالة والاحسان والأمانة ويرينا آفاق الجنة... في اللحظة نفسها تتوالى تحذيراته عن المنكرات والخلق السيء أو الاعتداء على أموال وأعراض وأرواح وحقوق الآخرين. وتتكرر دعوته لنا للالتجاء إلى حماية الله وصيانته.

إنه كتاب يؤمن بسمو درجات جميع الأنبياء والمرسلين السابقين وبجميع الكتب والصحف المنـــزلة عليهم ويعتبرها كتباً وصحفاً مباركة. وعظم منـــزلة التوراة والإنجيل والزبور خاصة، وعدّها كتبا مباركة، مع القيام بالحل والفصل في الأمور المختلف فيها، وتصحيح ما حرف فيها، والإيمان بما حفظ منها و لم يمس بتغيير. أي أنه عثر على الكتب القديمة المفقودة بوجه من الوجوه وأظهرها، وذكر أنبياءها بكل احترام وتوقير، ولا سيما النبي موسى عليه السلام والنبي عيسى عليه السلام حيث اعتبرهما ضمن "الانبياء من ذوي العزم". وبذلك برهن أنه كتاب ينطق بالحق. ثم ذكر بأن والدتي هذين النبيين العظيمين كانتا مظهراً للإلهام، أي كانتا تملكان قلباً وروحاً متميزين عن سواد الناس، وبذلك أثبت لجميع أصحاب القلوب السليمة أنه نـــزل لإحقاق الحق ووضع كل شيء في نصابه.

إنه الكتاب الذي أنقذ الانسان من جميع أنواع الانحرافات، وأرشده إلى طريق الفضيلة، ووعد الذين ينفذون أوامر الله تعالى بجنان فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر ببال بشر. وتَوعّد الذين يخالفون أوامره بيوم

تملع فيه القلوب، وتزيغ فيه الابصار، وتبلغ فيه القلوب الحناجر، فوضع بذلك توازنات مدهشة احتارت لها العقول.

لقد نال هذا الكتاب شرف البقاء نقياً ومصاناً عن التحريف وعن التبديل من بين جميع الكتب منذ تشريفه الدنيا، ومحافظاً على الوحي كما أنـــزل على الرغم من اعتداءات المفكرين والملحدين المساكين، الذين لا يعرفون شيئاً سوى العداوة والكراهية وبذل المحاولات لتغييره وتبديله، وعلى الرغم من الاصدقاء المغفلين الذين لا يعطون للصداقة حقها.

عندما نـــزل القرآن كأفضل جوهرة من جواهر اللوح المحفوظ، نـــزل بمنـــزلة وبشرف لا يُدانى. وهو اليوم محافظ على هذه المنـــزلة الرفيعة كما هي، بل ربما أكثر... أما في السنوات القادمة فسيكون هو الكتاب الذي تتنافس الشموس لكي تزين تاجه.

عندما ظهر القرآن المبين واحتضن الشرق والغرب والشمال والجنوب، وضمهم إلى حضنه بيديه النورانيتين، صحب معه العلوم إلى كل الديار التي احتضنها، وحول أرجاء الأرض إلى ما يشبه سفوح الجنة. والذين تمسكوا بـــه آنذاك، وحملوا رسالته النورانية ومثلوه بصدق، كانوا هداة البشرية والمرشدين إلى "الحضارة القرانية". لقد كان هؤلاء المرشدون من مستوى رفيع، بحيث إن الذين يدّعون اليوم أنهم معلمو الإنسانية لا يستحقون -لو كانوا في زمان هؤلاء المرشدين- إلا أن يكونوا تلاميذ لهم يتعلمون منهم.

لقد جاء القرآن المجيد برسائل نورانية أزلية وأبدية، وربَّى إلى جانب أبداننا وأجسامنا قلوبنا وأرواحنا وعقولنا وضمائرنا، وهيأنا لنكون إنسان المستقبل بعد أن أرانا الذرى الموجودة وراء الشواهق المادية والمعنوية. ولا شك أن كل أمة أو دولة تملك عقلا ووعيا سترى فيه في المستقبل منبعاً ثراً يجب الارتشاف منه مراراً، وهذا خلافا لرأي بعض من ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وجعل على أبصارهم غشاوة.

ولو تصرف مسلمو اليوم في موضوع القرآن بصفاء المسلمين الأوائل – علما أن هناك حركة ملحوظة في هذا الاتجاه حاليا– لاحتلوا مكانة مرموقة في التوازن الدولي الحالي في وقت قصير، ولتخلصوا من تقليد الآخرين والسير وراءهم، ولما وجدوا السلوان في وديان التقليد الأعمى.

إن قيام الطلاب الأوائل للقرآن بتلك الحملة الإيمانية والأخلاقية التي أدهشت العالم آنذاك يجب أن يدفع إنساننا المعاصر إلى تناول تلك الحملة بالدراسة والتدقيق بكل حرص. أجل!.. إن ظاهرة قيام بضعة آلاف من الصحابة –بعد ظهور الإسلام بين جبال مكة الوعرة– بحملة وبانقلاب كبير أضاءوا به أرجاء الأرض حادثة متميزة وخارقة للعادة يجب تدقيقها وتقييمها، وهو منبع ثرّ غنيّ يرجع له المؤمنون على الدوام.

لذا نستطيع أن نقول بأن القرآن كما لم يقم بالأمس بخداع الذين آمنوا به واتبعوه ولم يحيرهم كذلك لن يخدع الذين سيتوجهون إلى جوه النوراني ويؤمنون به بعد اليوم، ولن يخيب آمالهم. لأننا نؤمن بأن العقول عندما تضاء بنور العلوم، والقلوب بمعرفة الحق، وعندما يوضع الوجود تحت عدسة العلم والحكمة للتدقيق والدراسة، سيكون كل حكم صادر باسم العلم موافقاً لروح القرآن ومتلائماً معه.

أجل... لقد كان القرآن في كل عهد وعصر كتاباً يدعو الناس إلى العلم وإلى البحث العلمي وإلى التأمل وإلى النظام في التفكير وإلى قراءة كتاب الكون وفهم أسرار الوجود، واختار طلابه الحقيقيين من بين المفكرين والمتأملين. وهذه بعض القطرات من ذلك العباب الزاخر:

١–﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(الروم:٥٠).

٢–﴿قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾(يونس:١٠١).

٣-﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(البقرة:١٦٤).

٤-﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾(الأعراف: ١٨٥).

٥-﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾(ق:٦).

٦-﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ۞ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (الذاريات:٢٠-٢١).

٧-﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(العنكبوت:٢٠)

٨-﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾(يوسف:١٠٥).

بمثل هذه الآيات دعا القرآن الانسان لكي يتفكر في الخوارق التي يزخر بها الكون وليدقق المعاني الخفية للوجود، لمشاهدة آيات الجمال المنبثة حوالينا، وسماع الأصوات الآتية من جميع الأرجاء... أيْ يقوم برفع روحه إلى الذروة بالتأمل والتفكير.

٩-﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾(فصلت:٥٣).

يقول الحق تبارك وتعالى في هذه الآية بأنه سيري آياته في النظم الدقيقة في الأنفس وفي الآفاق، والتناغم والعظمة البادية فيها والتي لا يملّ الإنسان من النظر إليها ومشاهدة جمالها.

١٠-﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا شَاءَ قَدِيرٌ﴾(الشورى:٢٩).

١١-﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾(يس:٣٦).

١٢-﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾(النمل:٨٨).

١٣-﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۞ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾(يس:٣٨-٣٩).

١٤-﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾(الذاريات:٤٧).

١٥-﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾(النور:٤٣).

هذه الآيات وغيرها من الآيات ذات البيان الساحر الأخاذ تومئ وتشير إلى العديد من الاكتشافات العلمية التي شكلت أساساً لخوارق هذه المدنية، بل حتى إلى بعض الأمور التي لم نفهمها تماماً بعدُ، وتدعو أهل الفكر والإنصاف إلى الانتباه والتأمل.

الحج

يأتي الحج بمعنى القصد والتوجه. ولكن ليس من الصحيح حبس معناه ضمن إطار مجرد القصد والتوجه. فالحج يطلق على زيارة تتم في وقت مخصوص بشعائر معينة لأماكن محددة. وهو عبارة عن القيام بالإحرام في أيام محددة من أيام السنة بنية الحج والتوجه للوقوف في عرفة والطواف حول الكعبة. والإحرام شرط الحج، أما الوقفة على عرفات والطواف حول الكعبة فمن أركانه.

يتوجه كل سنة مئات الآلاف من الناس إلى بيت الله من جميع أنحاء العالم ضمن شريط مبارك من الزمن، فيزورون أماكن معلومة حددها لهم صاحب الشريعة ضمن أصول وشعائر معينة حيث يؤدون واجباتهم ويتطهرون من آثامهم، فالحج فريضة من الفرائض الخمس بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾(آل عمران:٩٧).

الحج شعيرة إسلامية تؤسس الوحدة الاجتماعية بين المسلمين، وهي شعيرة شاملة وواسعة إلى درجة أنه لا يوجد نظير لها من ناحية الشمول والوسعة فوق هذه الكرة الأرضية، ولا عند أي جماعة أخرى. وتمتد الكعبة بتاريخها -وبكل ما تحويه من معان مقدسة- إلى آدم عليه السلام وإلى ما قبل خلقه، ثم إلى إبراهيم عليه السلام الذي أعاد تعميرها من جديد بعد تعميرات عديدة سابقة. والكعبة بيت التوحيد المرتبط بالملة الإبراهيمية، وبالحقيقة الأحمدية قبل الخلق وفي مرحلة العماء، ورحم للنور المحمدي، وقبلة

جميع الأديان السماوية، ومركز للتوحيد بحيث لا يوجد هناك أي بيت أو مبنى يكون نظيرا لها أو مثيلا من هذه الناحية.

يتوجه في كل عام مئات الآلاف من النـــاس إلى هذا المكان السامي لكي يؤدوا وظيفة العبودية لله تعالى ويزدادوا قرباً منه في هذا الشريط المبارك من الزمن بالعبـــادات التي يؤدونها، حيث يتنفسون مشاعرهم وأفكارهم من خلال منافذ هذه العبادات، ويجددون عهود إيمانهم، ويتطهرون من أدران آثامهم، ويتذكر كل واحد منهم واجبـــه نحو الآخـــر ومسؤوليته تجاهه. ويؤدون جميع أمورهم الاجتماعية والاقتصادية والإدارية والسياسية ضمن خلفية وعلى أرضية من العبادة المتوجهة لله تعالى ومن الشعور بالعبودية له، حيث ترقّ القلوب، وتتسع المشاعر حتى تبلغ طور مدّها وتصاعدها، فيعودون إلى بلدانهم بعزم جديد وبقوة جديدة وشوق نضر.

يذهب كل واحد منا إلى الحج عندما نـــدرك أن الأدران قد أصابت مشاعرنا ولوّثتها. وعندما نبدأ بالسفر يخيل إلينا أننا ولجنا من باب لم نعرفه و لم نعهده في السابق إلى عالم آخر من المعاني، ونؤدي الشعائر، الواحدة منها تلو الأخرى، ونحس بها ونصل إلى أعماق معانيها. وبينما نحن في الطريـــق ونقطع الجبال المهيبة، ونشبع أعيننا وقلوبنا بعلامات الإسلام وشعائره، نشعر بهبوب نسيم الحج الدافئ. ونحن نحس بهذا النسيم الدافئ أينما كنا سواء على مقاعد الســـيارات أو في غرف القطارات أو البواخر أو على مقاعد الطائرات أو في غرف الفنادق أو في صالونات وقاعات المسافرين أو حتى في الأسواق. ومهما كنا متعودين على وسائل السفر هذه أو على هذه الطرق، فإن الأيام والأسابيع التي يستغرقها السفر تكون مملوءة بمعان روحية متناغمة، وبهبات وأفضال، حتى كأننا نستحم بمشاعر القرب والوصـــال وبأنواع الجمال والشعر والرومانسية، فيكتسب الروح قوة والقلب اطمئنانا، ونحسب أننا أمام باب سري يؤدي إلى عالم خاص مملوء بأنواع من الجمال الساحر.

وهذه الرحلة المباركة والمشاعر التي تتخللها تَهَبُ لعالم الأحاسيس لدينا قابلية حدس وشـــعور إلى درجة أننا نحسب والاطمئنان يلفنا -ونحن بحالة روحية خليطة من البهجة، وأحياناً بحزن خفيف ناتج عن حالة المراقبة الداخلية للنفس- وكأننا نخطو في رواق من أروقة الآخرة.

يرى أصحاب النظرة الصائبة أن الكعبة تنظر من ناحية إلينا، ومن ناحية أخرى إلى ما وراء هذا العالم المادي... إلى عالم الأبـــد... تبتهج أحياناً... وتغتم أحياناً أخرى... ونستطيع أن نطالع في وجهها الذي نستطيع تشبيهه بوجه إنسان وقور ورزين، لـــه تجربة آلاف السنين، وكأنها تريد أن تبث لنا شيئا، أو كأنها تخاطبنا وتهمس بأبيات شعر:

تعال إليّ أيها العاشق المتخفي... تعال!

هنا حريم خاص... هنا مقام الحرم،

لقد طالعتُ فيك أمارات الوفاء...

كأن الكعبة حسب موقعها ووضعها أمّ أو جدة جالسة في أفضل مكان في البيت لتشارك أولادها وأحفادها مسرَّاتهم وأحزانهم، وتعيش آلامهم. تجول بنظرها فيما حولها، تحزن أحياناً وتبتسم أخرى. ويحسب الإنسان وهو يطوف حولها في مدينة أم القرى كأنه طفل تمسك أمه بيده بقوة ليشعر بمزيد من الأمان. أجل!.. إن الإنسان وهو يطوف ضمن سيل من مئات الآلاف من الناس يحس وقد تصاعد عنده الشعور بالدار الآخرة بأنه متوجه لله تعالى بكل حب وشوق، وفارّ إليه جلّ جلاله، حتى ليكاد يغيب عن وعيه. وهو عندما يهرول وعليه ملابس الإحرام، ويرمل في الطواف وأكثر من نصف جسمه عار، تلفه المخافة من جهة، والأمل من جهة أخرى، ويعيش حالة من الانفعال وهو يسرع في طوافه هذا. ويستحيل شـــرح وتعريف الجو العميق الساحر الذي يحيط بالإنسان وهو يطوف بالبيت العتيق المبارك وما يشعر به أثناء الطواف والسعي من راحة نفسية ومشاعر رومانسية. وقبل أن

يبدأ الإنسان بالطواف يكاد يسمع -وهو يشاهد منظر الزحام الذي يذكر بزحام يوم القيامة- صمت الحرم الإلهي المنـــزوي وشعره. ولا يدري أحد أي الأبواب السرية تنفتح أمام الأرواح السامقة التي تدع أنفسها تنجرف في سحر جو الطواف، ولا أي مطارق خفية يلمسونها، ولا أي نوافذ سحرية تنفتح أمامهم على العالم الآخر؛ حتى أننا ونحن نطوف حول البيت العتيق بمشاعر فوارة ومتجددة في كل لحظة، نندهش ونتعجب من الألطاف التي تنهمر على قلوبنا من المنافذ المنفتحة في خيالنا، ومن البوارق التي تبرق في صدورنا، ومن الأسرار التي تطير بأرواحنا؛ ونتصرف وكأن في كل خطوة نخطوها باباً سرّياً سينفتح أمامنا مع دعوة لنا للدخول منه، ونحسب أننا نكاد نقطف لذة لم نعرفها من قبل، فنحس أن قلوبنا تدق بعنف.. عندها نشعر بعظمة الكعبة... هذه العظمة التي خالطت قلوبنا من قبل وسكنت فيها، وبكل عمقها... ونحس بأن نبض سحرها يسري في أنحاء جسدنا، فنرتجف من رأسنا حتى أخمص قدمنا.

ومع أن في الإمكان تفسير بعض هذه الخواطر وإسنادها إلى أسبابها، إلا أننا نبقى صامتين أمام الكثير من الســـنوحـــات والألطاف التي ترِد إلينا متجاوزة جميع مقاييسنا وتقييماتنا. لأن الكعبة وما يحيط بها من مظاهر مادية، حتى وإن كانت تعني شيئا، ولكن لكون أسلوبها أخرويا، ومعانيها ضبابية ومحتواها مغلقا وغير معروف، فليس باستطاعة الجميع فهم ما تريد الإشارة إليه. ومع ذلك فإن الجميع سواء أكانوا من العامة أم من الخواص، من الشباب أم من الشيوخ... كل فرد من هؤلاء لـــه نصيب من المعاني التي يدركها، وإن لم يستطع التعبير عنها.

وبجانب كون الكعبة بموقعها بين الجبال والتلال المهيبة تشبه زهرة زنبقة الماء منشقة عن برعمها، فهي بمثابة فانوس ســـحري يحمل ســـر الوجود، ومسقط ســـدرة المنتهى، أو هي بلورة من عصـــارة العوالم التي وراء

السماوات. وعندما يطوف الإنسان حول هذا الفانوس المحاط بالألغاز، يحس بأمور خفية بسعة الدنيا الدائرة، ويخيل إليه أنه ينظر من خلال موشور مرتبط بالسدرة المنتهى إلى عوالم فيما وراء السماوات.

أجل!.. فكل من لجأ إلى حرمها، يكتسب أعماقا في روحه ومشاعره وفكره. فعندما يفكر بوجوده وبالكعبة، ويستمر في التفكير في العلاقة بين هذين العنصرين اللذين هما مطمح النظر الإلهي، تنفتح أبواب سرية تنقلهم إلى عوالم سرية لم يكن لهم عهد بها من قبل. ولا شك أن مثل هذا الشعور والحدس، ومثل هذا المعنى والروح لا يحصل ولا يظهر إلا من اتحاد إيمان صحيح وقوي مع عيش حياة إسلامية كاملة، مع إخلاص ويقين تامين، وإلا لم يكن للقوالب المجردة مضمون حقيقي.

بفضل هذا الغنى وهذا العمق الموجودين في الكعبة، يبدو كل شيء عندما يصطبغ بصبغة الحج وبشعوره فوق قيمته عن الأوقات الاعتيادية، وبمهابة أكثر وألوان أجمل. عند ذلك يدع الإنسان نفسه لهذا السحر ليأخذه ويرتفع به ضمن حلزون من النور ليصعد به ويرتفع ليصل إلى معبوده. وصلاة الطواف التي يؤديها صاحب هذا الروح الواصل إلى مثل هذه الذروة تكون مثل سجدة الشكر، ومن يشرب من ماء زمزم يكون كأنه يشرب من كوثر الجنة أو يعب من شراب الوصال.

إنْ قُمْنا بتشبيه الطواف حول الكعبة حسب التعبير الصوفي بـ"السير في الله" الذي يعد في الأكثر سياحة حول شعور مبارك ومحاولة لزيادة العمق النفسي، فإن الذهاب والإياب في مواضع السعي يمكن أن نفسره بمعاني "السير إلى الله" و"السير من الله" الذي هو عنوان العروج من الخلق إلى الحق تعالى، ومن الحق إلى الخلق. أجل!.. ففي السعي بين الصفا والمروة يعيش الإنسان طوفان هذه المشاعر.

يعيش الإنسان في أثناء "السعي" شعور التضرع والطلب والدعاء

والاستمداد، ويعيش شـــعر وموسيقى الوصال وداء الوصال. فكأنه لا يفتر يطارد شيئا مهما. ويستمر السعي حتى يظهر ما يسعى إليه. وكل ما يظهر من أثر أو أمارة في هذا السعي يضاعف انفعال الإنسان ويثير مشاعره حتى تنطق الصدور بأمثال ما قال الشاعر:

انظر إلى حال هذا المسكين...

أصبح عبدا لشَعرة من شعر الحبيبة...

كلما غمس يده في شهد الحب...

ظمئ... فطلب الماء...

يتمتم بهذا وهو يسعى هنا كطوافه حول الكعبة. وفي مقابل محاولته عند الطواف حول الكعبة النـــزول إلى أعماق نفسه، نراه في السعي بين الصفا والمروة يسعى على خط مستقيم وقد دهمه شـــعور نبوي بالعيش من أجل الآخرين؛ بالضحك من أجلهم وبالبكاء من أجلهم، بـــل حتى بالموت من أجلهم. تراه لا يقر لـــه قرار، ولكن لا يفلت الحساب من يده. تراه قلقا، ولكن دون أن يتخلى عن الأمل. وتحت الأضواء الذهبية للســـماء، وفي الساعات الزرقاء لموسم الحج تراه يتلوى من حسرة داء وِصال جديد، ومن عدم عثوره تماما على ما يبحث عنه. فتراه يذهب ويجيء... يهَرول أو يمشي الهوينا... يصعد تلا وينـــزل من تل... يلفه التردد والاضطراب. ينغمس أحياناً في شلال نهر الناس المهرولين في المسعى ليعبر عن أحاسيسه ضمن كورس أو فرقة جماعية، وأحياناً يكون في حالة روحية يخيل إليه معها أنه لا يرى شيئا ولا يرى أحدا وأنه يسعى ويطوف منفردا، يبدو أمامه شبح السيدة هاجر عليها السلام... تراه يترنم وهو يرتشف من كأس قلبه:

اطلب أيها الولهان الحبيبة التي أهدابها،

مثل الأسنة لتطفئ لوعة الفراق...

أنا ظامئ، فابحث لي عن ماء في هذه الصحراء،

خوف جهنم قد جثم على قلبي وأحرقه،

كل أملي أن يرش غيث إحسانك على قلبي الماء...

بهذه الكلمات ينتظر رحمة تنـــزل عليه من السماء لتطفئ نار قلبه. وإلى جانب ناره التي تلهب روحه وتحرقه يتلوى من حسرة ومن ألم الانتظار الذي لا ينتهي. أحياناً يهبّ في المسعى نسيم بارد من وراء أفق هذا العالم، ولكن هناك في الأغلب حزن يلفه الشوق، أو شوق يلفه الحزن، مع معاناة عشق قد صبغه الرجاء والأمل.

كثيرا ما يختلط الخيال بالحقائق في المسعى، فيبدو الناس هناك أحياناً وقد لفهم صمت عميق... وأحياناً تسمع أصوات بكاء متقطع... أحياناً كأنهم يساقون إلى الميزان وأحياناً كأنهم يركضون نحو الكوثر، فهم بين خوف ورجاء وبين خشية وفرحة... يستمرون في الذهـــاب والإياب وفي الصعود والنـــزول... الدقائق والساعات هناك مع كونها خفرة وحَيِيَّة فهي كثيرة الطلب، فهي تطلب الاهتمام على الدوام. وإلا فستزول وتنمحي دون أن تترك أي أثر.

كلما اقتربت الأيام من العيد تلوّن المطاف والزمزم والمسعى بشعور خفي من الحسرة والغربة إلى اللون اللازوردي، وتبدأ الكعبة بإنزال ستارة نوافذها شيئا فشيئا. ومثل كل الحوادث التي تدل على حقيقة الفناء وتشير إليها يفهم الإنسان أنه متى آن وقت الرحيل فعليه أن يرحل، وأنه لا بد أن يأتي يوم سيرحل فيه عن هذه الدنيا، وعند ذلك ينـــزوي في عالمه الخاص ويعيش نوعا من الانزواء الروحي.

ولكن لم ينته بعد كل شيء... فهناك طريق طويل، ورحلة طويلة تنتظر هؤلاء السائرين إلى الله تعالى. فهناك "مِنًى" بلغزها الغامض، وبسحرها الذي يدير الرؤوس منتصبة على الطريق تنتظرهم... وهناك "عرفات" التي كأنك

تسمع فيها صرير أبواب السماء ترقبهم... وهناك "المزدلفة" التي لن تدَعهم قبل أن تذيقهم مأدبة روحية... وبعد خطوات هناك المكان الذي يُظهِرون فيه كامل تسليم أنفسهم لله ويرجمون عقولهم المعاشية الدنيوية، ويضحون عن أنفسهم ويعيشون في عوالم أحاسيسهم عيد البراءة والتطهر. ثم يتوجهون إلى الكعبة وإلى كعبة قلوبهم... يتوجهون من الله إلى الله، وينهون عروجهم ونزولهم، وينثرون ابتساماتهم على حظوظهم بإلهام من تداعيات "الفناء في الله" و"البقاء بالله".

"مِنًى" التي فرشت رداءها في عالم التضحية ببريقها الساحر تقوم بإسماع أشعارها حتى قمم تلال المزدلفة، وتحاول أن تدخل إليها، بل تود حتى تجاوزها لتسلم على عرفات... تسلّم على عرفات، وترشد ضيوفها -الذين يلبثون عندها أربعا وعشرين ساعة- وتسلمهم إلى عرفات.

"منى" بالنسبة إليّ رمز سماوي للتضحية والحنان، ولمعنى الانقياد للأمر في جو من المهابة في الأرض، وحضن دافئ. هي عنوان للاستسلام وكأنه عش للإخلاص الذي لا يطلب أي مقابل أو ثمن. و"مِنًى" التي يسكنها لبضعة أيام من لا يملك بيتا أو مسكنا، ولا منـــزلا أو وطنا مكان وموضع سرّي. فما أكثر المشاعر التي تموج في قلب كل من لم يغلق قلبه للآخرة في هذا الموضع الحافل بالأسرار. أما نحن فنحس أن "مِنًى" قد امتزجت بأرواحنا إلى درجة أننا نحس وكأنها تنبض في قلوبنا وتعيش في أعصابنا. وما أن نخطو إليها خطوة حتى نشعر بأنها احتضنت روحنا (من الملفت للنظر أنها أول مكان احتضن رسولنا لله)، وأنها تشير إلى الطرق المؤدية إلى ما وراء هذه الآفاق، وأنها تكملنا، وأنها تمتزج بعالم مشاعرنا، وهكذا نمتزج ونتوحد معها.

وبينما نبدأ بالتهيؤ في "مِنًى"، ونحاول أن نعطي أجنحة لأرواحنا، إذا بنا نرى عرفات وقد تزينت مثل غرفة عروس، وتهيأت لاستقبال زوارها مثل مرفأ أو ميناء أو ميدان أو قاعدة للانطلاق... تنتظر ضيوف الرحمن الذين

يسرعون إليها بلهفة مَنْ ألمّ به داء الوصال... ضيوف الرحمن الذين يسرعون إليها بحثا عن احتمال جديد وإمكانية جديدة.

لعرفات نورانية متميزة، وللزمن الذي ينقضي فيها عمق آخر، بحيث إن كل روح استطاع نيل سعادة الوصول إلى هذه الحاضرة لا يفنى ولا يموت كموت غيره من أصحاب الدنيا. وكل من قضى ساعات من عمره على عرفات يتفتح طوال حياته كزهرة، ولا يشحب ولا يبهت لونـــه أبدا؛ فالدقائق الحانية المليئة بالعشق والوجد والشِّعر تبرق من منافذ ومن عيون أرواحنا على الدوام وتلتمع؛ ويطن في آذاننا صوت الذيـــن يعلنون إيمانهم المزين بالعشق والوجد مغرديـــن تغريد البلابل... يعلنون إيمانهم ومحبتهم وعرفانهم المتين المستقر في أخفى مناطق قلوبهم، فيثيرون قلوبنا التي يغمرها الشوق آخذين بأيدينا إلى لذائذ لا يمكن بلوغها، ويهيجون مشاعرنا بألطاف ناضجة تشبع كل جوع وتضع مسحة من السحر على عيوننا -مثل استغناء الموجودات التي تملك حنكة وتجربة- وتجول بنا داخل غِنى أنفسنا.

الشروق في عرفات والغروب يكون دائما في جو من المهابة والعمق. ومن المحتمل أنه ما من شاعر بليغ يستطيع الترنم بأبيات كالتي تترنم بها عرفات وتسكبها في قلوبنا، أو تهمس لنا بحكمة وجودنا وغايته. وأنا أرى أنه لا بد لكل من يرغب في الوصول إلى رقة في الروح أن يتوجه إلى عرفات مرة واحدة في عمره على الأقل، ويمتزج بجوّها ويعيشه، ويتنفس شروق عرفات وغروبها كتنفسه الأوكسجين.

يعيش الإنسان في عرفات جو الدعاء والتضرع، ويطلق الآهات الحبيسة في قلبه التي ترتعش منها جوانحه. أما الأدعية بعد فترة العصر فتكون أكثر عمقا، لأنها تبدو وكأنها قد تضمخت بعطر وجوٍّ من وداع حزين، وتشبه الأصواتُ والأنفاس أصوات الملائكة فيما وراء السماوات، حتى تصل إلى ذروة السعة والنقاء. وكلما سمع الإنسان الآهات المنبعثة من سهل عرفات يشعر من الجو

الأخروي لهذه الأصوات، ومن الرقة والشفقة والرجاء الذي يحدثه الأمل في السعادة الأبدية، بأنه قد أصبح شابا وخالدا، وأنه اتسع وولج من فرجة باب كبير. أما عندما تغرب الشمس، وينشر الظلام جناحه فوق الأفق جالبا معه مشاعر فوارة من مشاعر الوداع، نتخيل وكأن الآمال قد تجسمت وبدأت تسيل في داخلنا، وأن مشاعرنا قد تنورت بفيض عرفات وبركتها، وأننا قد انسللنا من قوالبنا الجسدية -كما يحدث في الأحلام- ويممنا شطر نَواحٍ روحية ومعنوية غير واضحة المعالم تماما، وأننا بدأنا نئن كأنين عرفات، وأننا مع غروب الشمس ذبنا وانتهينا، وأننا قد تحولنا إلى آهات مثل الآهات التي تطرق أسماعنا في عرفات، بل إلى صراخ... ونحس بأننا قد تخلصنا من أثقالنا واكتسبنا أجنحة، ونحسب أن ماهيتنا قد تغيرت وتحولت إلى ماهية روحية وكائن روحاني، فيأخذنا الذهول ونتسمر في أماكننا.

عرفات ميدان يسود فيه الأمل والقلق مثل ميدان البعث والحشر يوم القيامة، وسفح من سفوح الرحمة. هي موطن لهطول الرحمة الإلهية على قلوبنا كالغيث، كأن الحوادث كلها تجري في إطار من الأمل، وكأن الإنسان يتجول فيها طوال يومه بين مواكب الملائكة، ويتذكر الآخرة دوما في قيامه وقعوده. يتجول الناس في سهلها وكل واحد منهم كأنه قد انسلخ من كل شيء دنيوي، لا يفكر إلا بحساب الآخرة وبالميزان... يتجول كالأشباح حاملا معه قلقه وخشيته، وكذلك أمله في الرحمة الإلهية، يرجو نيل عفو ربه، ويعيش خيال نجاته وفوزه، ويستفيد من يومه الوحيد هناك ويستغله كاملاً لكي يحصل على ألطاف سَنة كاملة وإلهاماتها... يستغل هذا اليوم، ولكنه ما أن يرى نفسه في موضع آخر وفي وقت دعاء ومناسبة تضرع، حتى يرى أنه لا يستطيع إلا الاندماج في جو الدعاء والتضرع.

لا مناص أمامه من هذا، لأن مزدلفة بالقرب منه تنتظره على بعد خطوات معدودة. فما أن نتلقى إشارة بأن مزدلفة في انتظارنا، حتى نترك

مكاننا الذي تحف به الأضواء والأنـــوار في عرفات التي تبتسم لنا بسمات الأمل. وبدرجة قرب الســـجود من الله بالنسبة إلى الركوع، نتوجه نحو مزدلفة التي تعد عنوان القرب من الله..[1] نتوجه إلى مزدلفة وكأننا نتوجه إلى الأبدية، أو نسير إلى الله تعالى. في هذا المكان المبارك الذي يكون البدر آنذاك قد قارب على التمام، فتماوجت الأنـــوار في السهول والجبال، وفي السفوح والوديان... يبدو كأن السماء قد دنت من الأرض ونزلت إليها، وكأن الأرض قد ارتفعت إلى السماء، وتحولت إليها. وبينما تحتضننا هذه الأحاسيس نشعر كأننا -ونحن في طريقنا إلى الله- في ميناء جديد، وشاطئ جديد، وفي سفح جديد. وضمن أجواء مزدلفة التي لم تتغير منذ إقامة الكعبة، وفي وُجُوهِ الحجاج التي ينعكس عليها نـــور السماء، نسمع أصوات هؤلاء العباد المخلصين الضارعين إلى الله تعالى... نسمعها في أجسادنا وفي أرواحنا وفي قلوبنا. عند ذلك نتوهم أننا أصبحنا في عالم آخر، وأننا نرافق الملائكة في عالم الملكوت ونتصادق معهم... عند ذلك ندع أنفسنا تماما ونتركها في لجة رحمة الله تعالى الواسعة.

يقول ابن عباس ﷺ إن سيد الأنبياء ﷺ حصل على وصفة مهمة وصريحة في المزدلفة بخصوص أمته وخلاصها، لم يستطع الحصول عليها في عرفات. وكم كان حبيبا إلى قلبي أن يكون هذا الرأي صحيحا مائة في المائة ولكان من حق المزدلفة -التي تقربنا من الله مثلما يقربنا السجود لـــه- أن تطلب منا ضراعة خاصة، وأنيناً وبكاء آخر يقربنا من الله تعالى.

الأضواء المنبعثة من المصابيح الموجودة في أرجاء المزدلفة، والوجوه النيّرة للحجاج، ونظراتهم التي ضببتها الدموع، وصدورهم التي تموج بالانفعالات، تضيف إلى ســـاحة هذا المكان المبارك -الذي لا نعرف سوى ليله- جمالا

---

(١) أي إن كانت عرفات تمثل الركوع فإن مزدلفة تمثل السجود، والقرب من الله في السجود أكثر من القرب منه في الركوع. (المترجم)

آخر يأخذ بالألباب. أما عندما يتقدم الليل فإن سحره يزداد ويتعمق. وبينما يستريح بعضهم تهيؤاً لغد حافل بالنشاط والجهد، ترى آخرين وهم يقضون الليل حتى الصباح في الصلاة والعبادة. ولا يدري أحد بماذا يفكر هؤلاء من أصحاب الأرواح السامية الذين حبسوا أصواتهم في صدورهم، ولكنهم يوصلون نبض قلوبهم إلى قلوب أهل القلوب... لا أحد يدري بماذا يفكر هؤلاء، ولا ماذا يقولون، ولا ماذا يهمسون لأنفسهم، ولا ما يخطر على بالهم. أصوات قلوبهم تتردد على الدوام في مستويات عالية سامية، وتتسابق مع أنفاس الملائكة وتكون معها كفرسَي رهان. وهؤلاء العمالقة الذين تجاوزوا الزمان، يستمعون إلى قلوبهم ويتكلمون بها. وبجانبِ وقَبْلَ لحن القلوب التي يترنم بها هؤلاء، بل وقبل قبل هذا، ينصتون ويحاولون سماع جميع الأنغام التي يستطيعون جمعها في كورس واحد من ضرب ريشة مشاعرهم على أوتار قلوبهم... يسمعونها معا وينصتون لها معا، ثم يرتشفون ماضيهم مع يومهم هذا، وكأنهم يرتشفون نغمة مليئة بالبهجة والحبور.

وعندما تلوح علامات الفجر في الأفق تبدأ جميع المشاعر والأحاسيس التي هاجت في عرفات بالانسياب إلى مزدلفة بعد أن تكون قد تضاعفت، تنساب مختلطة بأصوات أنين وبكاء مع ابيضاض وجه السماء بعد الفجر... توجّهٌ إلى الله تعالى خارج أوقات الصلوات وتوجّهٌ نحوه في الصلوات... أما الأدعية المنسابة إلى الصلوات والموجودة فيها والتي تعد بعدا من أبعاد القرب من الله تعالى فتأخذ عمقا متميزا آخر.

كأن هذه الأدعية ملابس من حرير تحيط بأجسادنا، أو أيادٍ سماوية تضيء آمالنا، وتمنح السلوان لآلامنا، أو كأنها ماء ينزل بردا وسلاًما على صدورنا التي تلتهب فيها النيران، أو كأنها صوت أذان يسمعنا الحقيقة الكبرى فيرسل الرعشة إلى قلوبنا... وأحياناً تقوم بجمع أشتات دنيانا السابقة، وتلم أجزاءها المتناثرة، وتسمعنا من المعاني عن حقيقة أنفسنا

وجوهرها وعن خلودنا ودنيانا وعُقبانا ما يجعلنا نكتشف أنفسنا من جديد، ونتعرف على حقيقة ذواتنا، وننظر إلى الدنيا نظرة اعتبار ومن زاوية جديدة، ونشعر بقرب من دار العقبى، ونراها أكثر صفاء وأشد وضوحاً.

تستمر هذه التضرعات والتوسلات حتى شروق الشمس وظهورها في الأفق معلنة عن ميلاد يوم جديد. أما الجباه التي بقيت ساجدة حتى ذلك الحين فإنها في أثناء شروق الشمس تبدو وكأنها تشد الرحال من جديد لبلوغ قُرب آخر، وتبدأ برحلتها. أما الآن فأمامنا "مِنًى" التي أتيناها سابقا وسلمنا على وِديانها واديا واديا... مِنًى التي يلجم فيها أصحاب الأرواح الصافية منطقهم، ويعطون زمامهم بيد الروح... مِنًى التي يبدي فيها الواصلون إلى مرتبة التسليم انقيادَهم... مِنًى التي لجمت عقول ومنطق آلاف بل مئات الآلاف من الناس منذ عهد آدم عليه السلام إلى إبراهيم عليه السلام، ومنه إلى سيد المرسلين ﷺ، وربطت تقييمهم للأمور ووزنهم لها بالقلب... وأخيرا وبعد هذا كله فمِنًى هي المكان الذي تأخذ فيها النفس نصيبها بعد رجم الشيطان، وفيها يتم التمثيل الجماعي لموضوع التعبد الذي يعد أساس العبودية.

وما أكثر ما يتم عمله هناك بجانب رمي الجمرات؛ تقديم الأضاحي والحلق وتبديل ملابس الإحرام ثم أداء فرض الطواف الذي يتم في جو من مشاعر روحية عالية... هذا هو بعض ما يؤدى هنا.

يقوم الحاج منذ مغادرته بيته وطوال طريق رحلته بالتحلل من جميع أنانياته، الواحدة منها تلو الأخرى. أما من ناحية حياته القلبية والروحية فيتكامل ويتزين مثل قطعة مزينة من الحرير. أجل!.. إن الإنسان وهو في رحلته النورانية هذه يتعرف على أقدم الحقائق التي لا تبلى أبدا، وعلى الحقائق الأزلية التي تبقى نضرة على الدوام، ويمتزج معها. يصل هناك إلى أحوال لن ينساها أبدا. أما بالنسبة لمن يدرك حقيقة وكنه ما يؤديه في هذه

الرحلة الأرضية/السماوية، والألطاف الإلهية المعنوية التي تنهمر عليه، والذكريات التي يحصل عليها، فإنه يكسب عمقا قلبيا وارتباطا أقوى بالدار الآخرة. وتظل ألوان السماء، وأصوات الحجيج تملأ مخيلتنا، وتلف أرواحنا، وتشخص أمام أعين أرواحنا طوال أعمارنا.

لا يمكن ذكر أي مكان آخر غير الكعبة وما يحيط بها، له نفس الجاذبية والسحر، وإن كان هذا مشوبا بشيء من الحزن. ففي حرمها يشاهد الإنسان في كل حين جمالا أسطوريا، ويقطف هناك كل شيء وكأنه أنضج فاكهة وأحلاها، ويأكلها. والمحظوظون الذين يصلون إلى سعادة تمريغ وجوههم هناك سيتخلصون من وهم البحث عن مكان عبادة آخر، وحتى غروب عمرهم وانتهائه لن يستطيعوا نسيان السحر ذي البعد الأخروي لهذا المكان أبدا.

الصلاة

الصلاة معراج المؤمن، ودليله النوراني وبُراقه، وسفينة السائرين من أصحاب الإيمان وطائرهم، وأقرب المنازل والديار لعوالم وراء هذه الدنيا للسائرين الذين يبتغون الوصال ويبتغون القرب، وآخر خيمة لهم، وأقرب الوسائل لبلوغ الغاية والمرام.

لكي يكون الإنسان في يوم القيامة أبيض الناصية، نوراني البصر، يتقدم على الآخرين بالأمارات الموجودة على أعضائه نتيجة الوضوء والسجود، بأيدٍ نقية، ووجوه طاهرة، بضمائر نزيهة مثل العالم الداخلي لأهل السماء... لكي يتحقق كل هذا فعليه بالصلاة وبالأعمال الصالحة قبلها. وفي الوقت نفسه نستطيع أن نطلق على عبادة الصلاة -التي هي الاسم الآخر والعنوان الآخر للقرب من الله والتي تملك أعماقا مختلفة- اسم "الرباط" الذي يعني الاستغراق في فكر العبودية لله طوال العمر.

أما الوضوء -الذي ننوي تناوله بشكل مستقل في بحث لاحق- فهو أول تنبيه في درب الصلاة، وأول تهيؤ لها. أما الأذان الذي يجب تناوله أيضا بشكل مستقل فدرب معنوي مهم. بالوضوء يتطهر الإنسان من الدنس البدني ومن السلبيات المعلومة وغير المعلومة، ويستمع الإنسان بالأذان إلى وجدانه. وعندما يصلي وحده الصلاة الأولى يحاول أن يجد الصوت الداخلي في أعماقه وأن يقتنصه، ثم ينتظر صلاة الجماعة لكي يحقق بالجماعة البدء بالحركة الكبرى.

إن هذه العبادة المباركة ذات الأبعاد الشاملة وذات الطابع المعراجي تقوم بنقل الإنسان إلى سماء اللانهاية لتصل بـــه إلى عالم الملائكة. والإنسان يدع نفسه في لجة هذه العبادة خمس مرات في اليوم وكأنه يتطهر ويغتسل في جدول دافـــق. وفي كل مرة ننغمر فيه في هذا الجدول نشعر بأننا تطهرنا أكثر. ثم ينقلنا هذا الجدول إلى بحر واســـع ويتجول بنا بين نقطتي البداية والنهاية، وهذا يعني تمرينات لنقلنا إلى نقطة من عالم الآخرة والخلود هي خارج أبعادنا الاعتيادية.

ينقسم الليل والنهار بشكل غامض بالصلاة... وتُنظم الحيـــاة حسب مفهوم زمني يتخذ العبادة محورا له، وبفضل هذا تجري تصرفاتنا وســـلوكنا مجرى حسنا تحت رقابة الله تعالى، وتأخذ حركاتنا وســـكناتنا خارج العبادة حالة عبادة أيضا، وتتلون بلون العبادة، وتبدو حيـــاتنـــا الفانية على وجه الأرض وقد تلونت بلون السماء.

وفي اللحظة التي يفيض ويحين وقت الأذان من خلال ضجة الحياة، أو من خلال الصمت المخيم عليها، ومن إشارات عقارب الســـاعة، ومن تغيير الشمس لموضعها، وزيادة الحركة والضجة حول الجامع، ومن سماع خرخشة مكبرات الصوت بينما يحاول المؤذن تعيير صوته تهيؤا للأذان... بعد كل هذه الإشارات حول قرب وقت الصلاة، تبدأ في الصدور أحاديث صامتة، وسماع أصوات غير واضحة المعالم مثل هذيان المستيقظ توا من النوم، وسماع كلمات تتجاوز أبعادنا الجسمية، وكأن الإنسان بدأ يعيش حياة برزخ بين الدنيا والآخرة. ومع أن الصلاة لم تبدأ بعد إلا أن أحاسيس أخرى تبدأ بالظهور نتيجة مناورات الفكر ومحاولته البحث عن مجار وقنوات جديدة... ويدمدم الإنسان بأشياء لا تعد ولا تحصى... وهنا وبعد قليل وقبيل بدء العبادة المزمع إقامتها تتوجه القلوب إلى نوع من التوثب والتركيز الروحي... وتحاول بمعاونة جميع الملكات الروحية والقابليات الوصول إلى حالة من التهيؤ والاستعداد المرجو.

يمكن أن يعد التوضؤ أول خطوة للتهيؤ لعالم العبادة، ثم يأتي التوجه نحو المسجد... كل هذه الأمور تعدّ تعييرا وجهدا للوصول إلى نقطة معينة من النضوج في هذا الأمر. أما الأذان فكأنه دعوة للدخول إلى الحرم، وصوت لَدُني يساعدنا للوصول إلى تركيز معين في أعماقنا، وريشة عود تضرب على أوتار أحاسيسنا. ومع أن آذاننا تعودت على صوت الأذان الذي يتكرر كل يوم، إلا أنه يظهر أمامنا فجأة على الدوام وكأنه قمر يرتفع من وراء التلال الموجودة بيننا وبين العوالم الأخرى... ويقصف كالرعد ليحول أنظارنا الدنيوية إلى السماء. وهنا يبدأ فاصل موسيقى إلهي كأنه صوت نافورة فوارة أو صوت شلال هادر. وما أن يبدأ هذا حتى ينهمر على أرواحنا أعذب الحان الدنيا... ألحان تحيي القلوب وتوقظها. ولا يقف أمر الأذان هنا، فهو يسحبنا بتداعياته إلى إقليمه الحريري ليهمس في قلوبنا سحر العهود النورانية، وليأخذ بيد خيالنا الذي يتجاوز الزمن ليتجول بنا في دروب التاريخ، ليجد ما فقدناه هناك، ويهبه لنا، مما يثير هذا الخيال ويهيجه. وهو يهب لنا في كل مرة باقة نضرة من صوت ومن شعر متناغم. نحن نتلقى الأذان في كل مرة ونستشعره في أعماقنا وكأننا نغتسل في جدول من الموسيقى، ونجد فيه سحرا آخر وطعما آخر ولطافة وسعادة أخرى. ويثير سماعه وحدس معانيه عندنا في أكثر الأحيان شعورا وكأننا نرتفع إلى السماء ضمن سلّم حلزوني سحري، أو نتجول ببالون في الأعالي. وأما إن كان الأذان يُؤدى على أصوله وكصوت للوجدان وكنَفَسه... فما أرقّ دقائق الأذان وما أنورها عندما يتردد صدى هذا الأذان المحمدي في السماء ويتماوج!.. ولو استطاع الإنسان أن ينزل في تلك الدقائق إلى أعماق روحه ليستمع إلى وجدانه لأحس بمعان لم تُكشف عنها وهي تنساب إلى داخله، واستمع لتداعيات متماوجة في أعماقه!

أما أصحاب الضمائر الحية الذين يجددون أنفسهم على الدوام، ويحافظون على نضارة حياتهم القلبية والروحية، فإنهم يحسون عند كل أذان

بحلاوة وطراوة أول أذان في العهد الذي نـــزل فيه لأول مرة من السماء، ويتخيلون في أصوات الأذان هذه وكأنهم يســـتمعون إلى نداءات الأنبياء... ويصلون في عوالم قلوبهم إلى كورس الملائكة وهـــم يكبرون ويهللون ويشهِّدون... ويخيل إليهم وكأنهم يسمعون أنفاس جبرائيل التي تهب الحياة، وأنفاس إسرافيل التي تبعث من في القبور.

وبعد أن يتم بالأذان التهيؤ المعنوي والإشباع الروحي، وقبل الإبحار في بحار القرب من الله قبل صلاة الفريضة، تعد صلاة النافلة، ثم إقامة الصلاة فترة استقبال لنسائم الرحمة الإلهية الهابّة على الأرواح، وزيادة في التركيز المتزايد بشكل تصاعدي حتى تلك الدقيقة، ويتم فحصه والتثبت منه مرة أخرى، ويعاد النظر مرة أخرى في حالة التهيؤ والتوجه والســـكينة النهائية. وهكذا يتم الإقبال على الصلاة وكأن الإنسان مقبل على العروج إلى السماء. وتتم في أوتار ضمائرنا عملية تنظيم لمشاعرنا الإنسانية النابضة في قلوبنا وتعبيرها، وللأصوات والكلمات والتصرفات التي توجهنا نحو محرابنا الأبدي، إلى أن نجد النغمات الحقيقية العائدة لقلوبنا. ولا شك أن الصوت الحقيقي يبدأ بالسلوك المشترك والمشاعر المتوحدة للجماعة التي تقف تجاه القبلة وتصطف خلف الإمام وقد عقدوا أيديهم أمامهم تعبيرا عن التوقير والاحترام... يركعون ويسجدون للحق تعالى، ويظهرون أقصى آيات التعظيم له، ويقفون أمامه خاشعين، وعند السجود يستوي عندهم موضع أقدامهم مع موضع جباههم. وبنسبة إحساسنا بشعور الجماعة في قلوبنا نستطيع تذوق كل صور جمال عصور الأنبياء والإحساس بها.

أجل!.. إن من يتواصل مع تناغم الصلاة السماوية، فإن كل حركة وراء الإمام في الصلاة وكل كلمة، هي عند ابن آدم صوت داء الوصال وصوت حسرة للجنة المفقودة، وتظهر بشكل شعور بالأمل وبالفرح بالوصال. والصلاة بالنسبة لمعظم من ترك نفسه في الجو المعراجي للصلاة تعد إشراقات فجر للأيام الحلوة التي تملأ خيالاتنا لعهودنا في الجنة من قبل، أو للجنات

المقبلة. أما نحن فعند وقوفنا لكل صلاة نحس -بنسبة سعة عالم الأحاسيس لدينا- وكأننا نرتشف بهجة صفو جيل نوراني وصمته... بهجة ممتدة من جمال الجنة إلى العهود الذهبية لتاريخنا. وبفضل هذا نستطيع جمع أذهاننا المشتتة بفعل المشاغل العديدة للدنيا، وتركيزها. أما أرواحنا فتنسلخ من الجو القاسي للجسد، وتنفعل مرة أخرى بأمل الوصال. ومع أنه لا يكون في كل صلاة ولا في كل صلاة فريضة فإن أرباب القلوب يستطيعون السياحة بين عالم الأزل والأبد عدة مرات في اليوم الواحد، ويمررون الماضي والمستقبل معا من منشور الفكر بوتائر متعاقبة. ويتأملون الشرائط الذهبية للزمن الماضي مع التلال الزمردية الخضراء للمستقبل المحفوف بالأمل في آن واحد. وبهذا نستطيع أن نشعر ونعيش حياتنا وحياة الآخرين في اللحظة نفسها، ونجد في أعماقنا لذة آلاف الذكريات وكأننا نرتشف ماء الكوثر. وكما يحدث في الأحلام نقوم بطيّ المسافات، والتجول في عوالم فوق الزمن... ونتذوق طعم جميع الأمور الخارقة وغير الاعتيادية... وننتقل من فكر إلى فكر، ومن شعور إلى آخر... ونقضي كل لحظة في جو من عرفان، وفي جو من محبة، وفي طوفان من شعور باللذة... وينطبق هذا على من استطاع الوصول إلى مثل هذا الأفق من العرفان.

عندما تمتزج الصلاة بالروح وبالقلب وتسري فيهما، تقوم هذه الحالة النورانية الفريدة بتقليب أعمالنا الاعتيادية لتضع تناغمها، وشعرها، وحالتها السماوية، وتقيمها بدلا منها.

الحركات السرية العائدة للصلاة التي تغذي أفكارنا وأخيلتنا كل يوم عدة مرات تجد على الدوام طرقا ومنافذ وراء أفق هذا العالم لتنقلنا إليها وهي تهمس في قلوبنا بأبيات الشاعر نسيمي:

مكاني أصبح لا مكانا،

انقلب كياني كله روحا،

وتجلى عندي نظر الحق عيانا،
فغبت عن نفسي من لذة الوصال...

وهكذا تقوم العبادة بإفشاء ما يستتر في القلوب من الجمال الأزلي الذي كان كنـــزا مخفيا من قبل، والذي هو منبع جميع الإلهامات والهبات، بكل أعماقها التي لا تسعها الأبعاد والمسافات. لذا فما يُعاش في أثناء الصلاة – بجانب الأمور الواضحة المعروفة للجميع– هو في الأكثر طوفان من المشاعر المتسمة بالعظمة والمهابة والتي تتجاوز الكميات والكيفيات، ودوامة من الأحاسيس. في الصلاة يخيم على دنيا التعبير والبيان عندنـــا ما لا يمكن أن يُقال، وتهمس مشاعر لا يمكن التعبير عنها بموسيقى فريدة في أرواحنا، وتشغل كياننا أحاسيس واسعة وعريضة لا تسعها الألفاظ اليومية الاعتيادية، وتنفرج فطنة –تتجاوز العقل المادي وتتسم وتتلون بلون وطابع غيبي مفتوح للحدس والإلهام– عن باب فكر أخروي مرتبط بالخط النبوي... لذا نستطيع أن نقول من هذه الزاوية إنه لا توجد للعبد عبادة أكبر من عبادة الصلاة، ولا توجد أحاسيس أصوب وأصح من الأحاسيس التي تظهر في تصوراته وخيالاته وهو قائم في الصلاة.

إن أفق الصلاة الذي تصله روح الإنسان التي تتجاوز بمشاعرها وإلهاماتها وحدسها الجسد وعالم الشهود، مع جميع الأرواح التي تحس به، تنطق بالحسرة وبآلام داء الهجران. كما تنطق في الوقت نفسه عن اطمئنان القلب، ورَوْحِ وريحان المشاعر الإنسانية، وعن المصير والقدر الأزلي للوجود، وعن تأمل النجوم لسطح الأرض، وعن أســـرار السماوات، وعن أضواء دار العقبى، وسفوح الجنة، والأشجار المتمايلة في تلك السفوح، وعن الأنهار الهادرة تحت هذه السفوح... تنطق بأركانها... وتنطق بالقرآن الموجود فيها، وبالأدعية... تنطق بكل هذا وتكرره بأداء وبأسلوب جديـــد وكأنه يسقي أرواحنا مياه الكوثر.

وبعد الوقوف للصلاة يود هؤلاء العباد الصادقون أن يعلنوا عن طريق الركوع مدى انفعال أرواحهم الصافية، وعن ارتجافات ورعشات أفكارهم النيرة المستقيمة التي لا عوج فيها ولا التواء. وبشعور خليط من الإحساس بأنهم تجاه عظمة وجبروت، وأمام رحمة ولطف ينحنون مثل انحناء عصا... ينحنون وهم يتمتمون بصوت خافت وبشعور من العبودية يلف كل كيانهم... يتمتمون دوما عن العظمة الإلهية، ويدقون باب الحضرة الإلهية بالركوع الذي يعد أسلوب توجه أهل السماء وإبداء خضوعهم له. وبنسبة انفراج ذلك الباب يستطيعون الوصول إلى أعماق عالمهم الروحي. وكما في الحج أو في رحلات أخرى نحتاج فيها إلى تكرار التكبير والتهليل عند تسلق تلال، أو عند النزول إلى سهول، وكأننا ننتقل من فصل لفصل آخر، كذلك يتم في الصلاة التي هي عنوان رحلة الروح ومعراجها التعبير عن الانتقال من فصل فيها إلى فصل آخر بكلمات مباركة تحمل المعنى والشعور والفكر المبارك نفسه. ففي كل ركوع تقريبا يتم لمس مطرقة باب الحضرة الإلهية العظمى بالتكبير والحمد وبالمشاعر التي تتداعى بهذه الكلمات. ثم يتم انتظار الوقت المبارك بكل يقظة وانتباه ورسوخ لتقييمه بأفضل شكل، وتتم محاولة اصطياد التجليات الإلهية وهباتها وألطافها بصبر العنكبوت ودقة الهرّ في اصطياد فريسته.

ينفث الركوع الذي يأتي بعد خطوة واحدة من الوقوف في الصلاة نفحاته علينا، ويهمس في أرواحنا همسات أجمل من الحياة نفسها، وأثمن من الأذواق الجسمية، وعن رؤيا لا يمكن أن نتخيلها أو نتصورها، ولا يمكن أن تتحقق في هذه الدنيا أبدا. ويَعِدُ قلوبنا أمورا تتجاوز بكثير ما ننتظره أو نتوقعه... يعدها بأيام ودقائق زمردية وراء هذا العالم. ألسنا جميعا أبناء أفكارنا وخيالاتنا وآمالنا بوجه من الوجوه؟ فعندما اهتدينا إلى الحقيقة بعد أن قاسينا الكثير في هذه الأيام الصعبة، فإننا نتجاوز الزمن الذي نوجد فيه

ونثبت أنظارنا على "الزمن الآتي" بأمل الحصول على السعادة، حيث نتأمل باسمين سفوح الجنة.

الركوع ببُعده الذي يحمل معنى الانحناء أمام الحق تعالى توقيرا وتعظيما لـــه، لذا فهو يأخذ معنى الانحناء من كل من أحنى ظهره، وأحياناً يقول: ﴿رَبِّ إِنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ أو ﴿إِنَّمَا أَشْـــكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ﴾ فنشـــعر برائحة قميص يوســـف من عالم يوسف عليه السلام أو صوت خرير ماء الحياة. يُسمعنا هذا ويهيج مشاعرنا بالخوارق المنتظرة من وراء الحقائق. يهيجنا إلى درجة أن شعورا بالحمد والثناء يلف كياننا فنعتدل في الوقوف لكي نهدي له تعالى عرفاننا بالمنة له. وهذه الوقفة القصيرة تختلف عن الوقفة الأولى، فهي مرحلة جديـــدة من مراحل الرحلة والسير نحو الله تعالى، وشاطئ آخر من هذه الرحلة. في هذا الميناء النوراني نسترجع في أعماق قلوبنـــا تسبيحات الركوع، ونحاول في هذه الوقفة القصيرة الإحساس بمشاعرنا التي لا تحد، وخيالاتنا اللانهائية، ونجعل قدرة الحس عندنا في استنفار لتصيد الألطاف، وبأطياف "الكنـــز المخفي" الذي عرفناه ندع أنفسنا في شلال جديد من أحاسيس واسعة مصطبغة بصبغة القرب من الله. ومن الصعب معرفة مقدار اللذة والخشية ومشاعر التوقير التي تلف كيان الذين يشعرون بالصلاة في ركوعهم وقيامهم في أعماق ضمائرهم، وكيف ينفعلون بالأمل، ويرتجفون من الخيفة. هذا الشعور، وهذا الإحساس العميق هو أولى الخطوات التي يخطوها الإنسان نحو الوصال، وأكثرها جدية، والسجود هي الخطوة الثانية.

الســـجدة هي أرضية وخلفية الشكر، ووعاء المهابة الذي تصهر فيه العبودية وتسكب إلى قلب وقالب الواصلين، وعرصة وخليج مشاعر وأفكار الوصال المتوجهة للذات الإلهية ونقطة اللقاء.

وكلما شعرنا بالسجود على وجهه الحقيقي، وتفاعلنا معه نحس –ونحن ننتقل من القيام في الصلاة إلى الركوع ثم إلى القيام– وكأن هناك عصارة من

الإيمان ومن الإســـلام ومن الإحسان تنسكب إلى التلال الزمردية لقلوبنا وتنساب إليها.

عند السجود تلتقي جبهتنا وأقدامنا في المستوى نفسه، ونشكل نصف قوس، ونتوتر مثل وتر القوس، وننقلب إلى نَفَسٍ وإلى صوت أنين، فنحس أن وسعة آمالنا تسبق أعمالنا، وتكفي كل شيء، وأن رحمة الله تسبق كل شيء عندما تتحد مع إيماننا وتكوّن وحدة معها، فنشعر وكأننا نمر من تحت أكاليل سماوية يقع طرف منها في عالمنا والطرف الآخر في دار العقبى محاولين تغيير حظوظنا.

وعندما ينظر الإنسان من موقعٍ ونقطة ذروة حظه التي يســـمو إليها بمشاعره في السجود، ويتطلع ويتأمل الحقيقة، ويشرح بلسان قلبه جميع الكلمات المعبرة عن أحاسيسه، يوجه دنياه قليلا نحو الآخرة، ويعكس بعضا من عالمه البعيد إلى عالمه الروحي، فيستطيع الإحساس بمناخ عبوديته والعيش فيها وكأنه يقرأ ويطالع مناقب هذه العبودية ومآثرها.

أجل!.. إن أدعيته التي يثيرها شـــعوره بعبوديته، عندما تختلط بشلالات الرحمة الإلهية وألطافه، وتجريان معا لتلتقيا بالاستجابة الإلهية تعيش عندها مشاعرنا في جو جميل كجو الجنة، وتنشد أغاني الوصال. وجمال هذا -عند الذين يفهمون هذا الأمر- جمال أخاذ، وجمال جذاب وساحر إلى درجة أن من ذاق طعم هذا الجمال مرة واحـــدة في حياته لا يدري كيف يشكر صاحب هذه النعم وصاحب هذه الأفضال.

إن بطل القرب من الله الذي يتعمق قربـــه من الله كل حين، الواضع جبهته على الأرض، والذي يرتفع في سياحة سماوية وبشكل حلزوني إلى ذرى لا يمكن بلوغها... مثل بطل القرب هذا يشـــعر وكأنه اقترب من "حظيرة القدس". وبسُكْر هذا الشعور، يرفع رأســـه بكل توقير من السجود مبديا تعظيمه وعرفانه بكرمه تعالى لكي يلوّن شعوره بالوصال ببعد آخر،

لكي يقول: "التحيات لله..." بكل الأدب الذي يقتضيه وجوده في الحضرة الإلهية... يقول هذا ويأخذ بـــه الوجد حتى كأنه لم يعد كائنا من كائنات هذه الدنيا، أي يأخذ حالا ومعنى وسحرا فوق الطبيعة.

وبعاطفة لا تعرف الارتواء ولا الشبع يتوجه بطل الصلاة بهذه المشاعر الفوارة -خارج حدود الكم والكيف، والمتعمقة بالنية الخالصة التي يخلد بها يقينه ويرتبط بها بالله تعالى- لأداء فرض الشكر للحق تعالى على كل نعمه من حياة ومال وسائر نعمه الأخرى، فيذكر الله بكل مشاعر كيانه ويئن... يذكر النبي، فيمتلئ داخله بالانشراح... ويفكر بالمؤمنين الذين يشاطرونه السعادة نفسها فيدعو لهم بالخير... ثم ينهي صلاته التي بدأها بالتكبير بالشهادة التي هي أساس الدين، وأساس رحلة المعراج هذه.

الذين تعودوا على أداء الصلاة، ويتغذون بها، لا يشبعون منها أبدا. ليس الشبع منها، بل يقول كل منهم عقب الانتهاء من كل صلاة: "هل من مزيد؟" فينتقل من صلاة نافلة، إلى نافلة أخرى، ويرتفع كالشمس في صلاة الضحى، ويلمس بصلاة الأوابين مطرقة باب القرب من الله، ويرسل الأنوار بصلاة التهجد إلى ظلام البرزخ، ويحاول أن ينسج حياته بالصلاة مثل دانتيلا جميلة، ولا يدير رأسه أبدا عن العالم النوراني الذي يعيش فيه، ولا عن المعاني التي تلف روحه... بل يَعْدو على الدوام ويسرع وراء أنواع صور الجمال التي تَعِد بها الصلاة.

الميلاد السعيد

إن ميلاد فخر الكائنات يعد ميلادا جديدا للإنسانية كلها. فحتى تشريفه للدنيا لم يكن هناك فرق بين الأسود والأبيض، ولا بين الليل والنهار، ولا بين الورد والشـــوك. كانت الدنيا وكأنها في مأتم عام، والفوضى تســـود الوجود... وبفضل النور الذي أنـــار بـــه الوجود افترق الضياء عن الظلام، وانقلب الليل إلى نهار، وانقلب الكون إلى كتـــاب يمكن قراءته كلمة كلمة وجملة جملة وفصلا فصلا... كأن كل شيء قد بعث من جديد، ووصل إلى قيمته الحقيقية.

أجل!.. إن تشريفه الدنيا يعد حادثة كونية، أي أهم حادثـــة جرت في الأرض وفي السماء، وبعثا وحيـــاة جديدة للإنسانية في الوقت نفسه. فهو بالرسالة النورانية التي حملها بيديه كان يقوم بتنظيم الدنيا من جديد حسب قيم السماوات، وبوظيفة الترجمان للحقائق الموجودة خلف أستار الوجود، وبتقديم تفسير جديد ونظرة جديدة للأشياء وللحوادث. فقد كان الوجود قبله دون معنى ودون روح، قد تمزقت الروابط فيه، وأصبح كل شيء غريبا عن الآخر. كأن الجمادات كانت من قبله رموزا لمسيرة العبث في مسرح الوجود، وتبدو الأحياء وكأنها في قبضة الانتخاب الطبيعي، وفي كل يوم بقبضة موت مختلف. وفي مثل هذه الوحشة المظلمة كان الإنسان يئن من الفراق كل آن كيتيم وكمظلوم. بالنور الذي نشره انـــزاحت الأستار وزال سحر الظلام فجأة، وفرّت الشـــياطين، وهُزمت الضلالات واستقرت في أعماق الجحيم، وتغيرت ماهيات الأشياء، فانقلب الهدم إلى بناء، والانقراض

إلى التعافي. وبدأ المجيء إلى الدنيا والرحيـــل عنها يأخذ شكل مراسيم عيد، المجيء إليها عيد ميلاد، وفراقها عرس رحيل.

منذ أن داعب نوره رؤوســـنا زال عن أرواحنـــا رعب الفناء، وفاضت بشائر الوصال من ديار الأحبة على الصدور الملتاعة. وبإكسير الحياة الذي نفخه في قلوبنا وفي قلب الإنسانية كلها بدأنا ندرك أنفسنا ونفهمها، وندرك ماهية العلاقات بين الأشياء، ونستطيع تقييم القابليات الموجودة في ماهيتنا وجوهرنا، ونحدس بُعد اللانهاية الموجودة لدينا. لولاه لما اكتشفنا هذا العمق الموجود في أرواحنا، ولا استبشرنا وفرحنـــا بالرحلة التي تمر من القبر نحو اللانهاية. هو الذي نثر على قلوبنا انفعالات الوجد والعشق... هو الذي أنار عيوننا بالنور... وهو الذي هيأنا للرحلة إلى بلد الأبد والخلود.

هو بالنسبة للساحل الذي ننتظر فيه بدء هذه السفرة الطويلة والمليئة بالأسرار قبطان السفينة ومرشد الطريق. وهو بالنسبة للعالم الذي نرحل إليه ونصله. المضيف ومستقبل الضيوف ودليلهم، وشـــفيع لنا. لذا كانت هناك مسؤوليات معينة لنا تجاهه، ولا يمكن أن نبقى غير مبالين بهذا الأمر أبدا. ولكن الغريب أننا طوال عصور عديدة بقينا غير مبالين برمز الضياء هذا وبرسالته النورانية... لا، ليس فقط غير مبالين، بل أحياناً تصرفنا دون توقير واحترام تجاهه.

ومع أننا نحاول في الحقيقة ضمن دائرة معينة وضمن مقياس ما، القيام بشعائر الاحتفال بمولده بتوزيع بعض الحلويات وماء الورد، وأحياناً بجلب بعض المغنين أو قراء المدائح النبوية لإثبات ارتباطنا به... ولكن كل هذه المحاولات لا ترتقي ولا تتناسب مع عظمته. بل لم تصـــل حتى إلى الاحترام والاهتمام الموجه إلى عظماء في التاريخ لا يستطيعون إلا أن يقفوا باحترام أمام ســـيد الأنبياء والمرسلين. فمثلا لا نشاهد أي فورة فرح أو مظاهر بهجة كالتي نشاهدها في مناسبات عيد ميلاد المسيح عليه السلام وفي احتفالات رأس السنة الميلادية.

والمقترحات التي يمكن تقديمها هنا ليست بطبيعة الحال من التكاليف الشرعية، فلا يمكن لأي أحد ادعاء هذا. ولكني أتساءل ألا يمكن أن نجعل هذه الاحتفالات -باسم رسالته الهادية النورانية- أكثر عمقا وغنى وجدية؟

يتم الاحتفال بالأيام العائدة إلى السيد المسيح عليه السلام في جميع البلدان تقريبا، المسيحية منها وغير المسيحية، بمظاهر كبيرة من الفرح والحبور والبهجة. وتستمر هذه الاحتفالات أسابيع، بل أشهرا، تجري فيها حوارات وكلام في هذا الموضوع. وفي كل أسبوع يتم تبادل التهاني والهدايا باسمه، ويكون هذا هو الشغل الشاغل لدوائر البريد في تلك الأيام، وتدق الهواتف على الدوام من أجله، وترتفع سماعات الهواتف له، وتتزين كل الأرجاء بالشموع، وتغرق الأسواق والمحلات التجارية بالأضواء، وترتفع الضحكات. تنقلب البيوت إلى خلية نحل تئز بالمشاعر نحوه، وتئن المعابد بأناشيده، ويمر كل يوم ضمن احتفالات ساحرة تدير الرؤوس.

صحيح أن العديد من الناس في هذه الكرنافالات التي يختلط فيها الحابل بالنابل لا يعرفون ما يفعلون ولا يعرفون لماذا يفعلون، ويكون الكثير من تصرفاتهم تصرفات تهريجية ودون أي ضوابط. ولكن مع هذا تَشم في تلك الأيام نوعا من الوجد الديني، وقطاعات كبيرة من الناس تعرف ماذا تفعل.

على أي حال من الأحوال فإن الأيام والليالي المرتبطة بالمسيح عليه السلام قد امتزجت في فكر الإنسانية إلى درجة أن الجميع -أدركوا ذلك أو لم يدركوه- يجدون أنفسهم في خضم هذه الاحتفالات الغريبة. وسواء أكانت الاحتفالات عبادة أو لهوا أو تهريجا، فهم يجدون أنفسهم يشاركون المسيحيين المشاعر نفسها، ويقومون ويقعدون مع هذه المشاعر، حتى إنهم يقومون بقطع أشجار الصنوبر وبذبح الديك الرومي، وبشرب الشمبانيا، فيسكرون حتى الثمالة، ويخرجون إلى الشارع سكارى لا يدرون ما يفعلون.

طبعا نحن لا نرضى ولا يوجد هناك شخص واحد يرضى أو يقبل تحول مناسبة المولد السعيد والمبارك والمبجل، ولا تحول الدين الإسلامي إلى مثل هذه الكرنافالات. كما لا يملك أحد القدرة على القيام بمثل هذا التحويل. ولكن كلما شاهدنا كيف أن دنيا يسودها الكذب والرياء استطاعت استغفال الإنسانية كلها وأخذها في شباكها... كلما شاهدنا هذا نحاسب أنفسنا ونتسائل بحزن: "لماذا لا يستطيع العالم الإسلامي الاحتفال في ربيع الأول كما يجب بمولد سلطان الأنبياء الذي هو في الوقت نفسه ميلاد هذا العالم وربيعه، ويوم خلاص الإنسانية نفسها... الاحتفال بنفس المشاعر الجياشة".

لا يجب أن يتبادر إلى الأذهان مما ذكرنا أعلاه أننا نريد المسّ بمقام سيدنا المسيح عليه السلام وبمنزلته، أو بمقام أتباعه وحوارييه. فالاحترام والتوقير الذي نحمله نحن المسلمين تجاه هذا الرسول الكريم لا حد له. كما نؤمن بأن الرسالة التي أتى بها تشكل الآن ركنا مهما من أركان المدنية الغربية الحالية. فالمؤرخون وعلماء فلسفة الحضارات يذكرون بأنه لولا رسالة المسيح عليه السلام وما حملته من روح ومعنى لما ظهرت المدنية الغربية. لأن هذه المدنية تعتمد على أركان أو على أسس ثلاثة هي: الفكر اليوناني (الفكر الرياضي)، والقانون الروماني، ثم الركن الثالث المهم وهو الدين المسيحي. ويجب هنا أن نسجل بأنه لولا فخر الكائنات محمد ﷺ ورسالته الهادية المنيرة لما كانت هناك حضارة تحت اسم الحضارة الإسلامية. ولولا الحضارة الإسلامية لما كانت هناك الحضارة الغربية.

أجل!.. فلو لم يكن هناك الدين الإسلامي بسماحته المعروفة ودفئه وتقديره للعلم والفكر وحضّه عليهما... ولولا شروقه على سفوح الغرب بألوانه السماوية... ولولا قيام العلماء المسلمين والمفكرين الأتراك منذ القرن العاشر بنقل الثقافة اليونانية-اللاتينية إلى أوروبا وتعريفها للأوروبين لبقي

الغرب حتى الآن في ظلام القرون الوسطى. وكما هو معروف فإن علوم الرياضيات والفيزياء والكيمياء والفلك والهندسة والطب وغيرها من العلوم كلها من منشأ شـــرقي، ومنصهرة في البوتقة الإســـلامية. وعلى الرغم من وجود فئة مســـتغربة تتصور أن الغرب وحده هـــو مصدر كل شيء متعلق بالمدنية، وهي لا تقبل سوى هذه النظرة، فإن الغرب اضطر لكي يأخذ موضعه الحالي من المدنية إلى الانتظار ســـتة عصور بعد بعثة المسيح عليه السلام... انتظر والتقى بالإسلام. وسواء أسْتطاع الغرب تقييم هذا اللقاء كما ينبغي أم لم يستطع، فهذه مسألة أخرى، ولكنه تأثر به دون أي شك، واستفاد منه كثيرا، وخطط مستقبله على ضوئه.

على الرغم من عدم قيـــام الغرب بتبني الضوابط التي تشكل أسس الحضارة الإسلامية إلا أنه أخذ الشيء الكثير من الإســـلام واستفاد منه. ولعب ما أخذه عن الإســـلام، وما تداعى إليه منه، دورا كبيرا في تشكيل العقل والفكر الغربي الحديث. لذا نستطيع أن نقول مع الشاعر محمد عاكف:

الدنيا مدينة له فيما تملكه،

المجتمع والفرد مدين له،

البشرية بأسرها مدينة لذلك المعصوم،

يا رب!.. ثبتنا على هذه الكلمة يوم الحشر...

منذ عصور ونحن عاجزون عن الاحتفال بيوم وأسبوع وشهر ولادة هذا الرسول الكريم ﷺ الذي تدين له الإنسانية جمعاء، بما يتناسب مع قامته السامقة الرفيعة، بل لا يتم الاحتفال به بنسبة ما تتم من الاحتفالات لعظماء التاريخ الذين لا يستطيعون بلوغ كعبه ﷺ. فلو رتبت الاحتفالات بمولده أياما وسنوات وعصورا لما تم الإيفاء بحقه. ولو أنشدنـــا عشرات وآلاف القصائد والأناشيد كل ليلة لما أوفيناه حقه. ولكن انطلاقا من المثل الشعبي القائل: "السلطنة تليق بالسلطان، والتسول يليق بالمتسولين" نقول: "بدلا من

عدم عمل أي شيء، فمن الأفضل عمل ما يمكننا عمله في الأقل". لذا يجب ترتيب ندوات على غرار "ندوة الرسالة الخالدة"[1] على أن تعقد هذه الندوة كل سنة في بلد مختلف، وتخصيص فترة معينة من الزمن لها. وإذا كان من الممكن تخصيص العام القادم كـــ(عام محمد ﷺ) مع شعورنا بالخجل والحياء من بخلنا وعدم وفائنا المتجلي بتخصيص عام واحد فقط له.

(١) تعقد هذه الندوة سنويا في تركيا. (المترجم)

الهجرة النبوية

الهجرة رحلة لغاية مقدسة ولهدف جليل وكبير... ومثل هذه الهجرة ترمي إلى تحقيق مثل هذا الهدف بمدٍّ وتقوية من العقيدة والعاطفة والفكر وتغذية وعون منه. وبمقدار درجة الإخلاص في هذه الهجرة وعمقها، تكون مساوية ومعادلة لسياحة الإنسان في السماء. وقد شُـرِّف فخر الإنسانية بهاتين السياحتين، السماوية منها والأرضية. السياحة الأولى كانت خاصة به وغير متاحة لأحد غيره. أما الثانية فهي طريق واسعة باقية ومفتوحة للجميع حتى يوم القيامة في شروط خاصة ومعلومة... طريق واسعة ومضيئة مشى عليها مئات الآلاف من الناس قبل بعثة شمس سماء النبوة وقمرها. ولا شك أن أكثر هذه الهجرات المباركة فضلا، وأكثرها دويا في سمع الزمن، هي الهجرة التي قام بها فخر الإنسانية الصادق المصدوق ﷺ مع أصحابه الصديقين. لقد تحمل الرسول الكريم كل صعاب الهجرة -التي جاء الأمر بها من فوق سبع سماوات- من أجل العثور على معاونين مخلصين لأصحابه الكرام الأوفياء، وعلى موطئ قدم أمين وراسخ ليؤسس هناك دولته، ويقيم الجسور للناس ليوصلهم إلى رحاب دين عالمي، له أبعاد عديدة ومتداخلة وعميقة، ويملك قابلية إنشاء تاريخ جديد ومدنية جديدة.

الخطة والمشروع واسع سعة السماء، والمسافة بين المبدأ والنتيجة والهدف مسافة هائلة. ففي هذه الطريق الطويلة احتشدت الشياطين والعفاريت على طولها من أولها لآخرها، وفارت في كل جانب منها مشاعر السوء والشر، وأوقدت في كل منحنى منها نيران للفتن. أجل!.. فعلى الرغم من جميع هذه

الظروف السلبية كان هناك منبع قـــوة كانت كافية لملء القلوب بالأمل والانشراح والاطمئنان، ففي كل قلب، وعلى كل لسان كانت هناك جملة واحدة تتكرر (حسبنا الله ونعم الوكيل). فكل منهم قـــد توكل على الله واستند إليه وإلى توفيقه، وبدأ رحلته في هذا الدرب الطويل... بدأ رحلته في هذا الدرب دون أن ينظر إلى ورائه، ودون أن يهمل من يمشي وراءه.

في تلك الأيام كانت جميع الطرق تجرب مع كفار مكة وطغاتها، ويستعان بجميع الحلول الممكنة. ولكن رجال الدعوة هؤلاء الناذرين أنفسهم لوظيفة الدعوة إلى الله لم يجدوا أي تجاوب، و لم يكن هناك أي وجه للمقارنة بين ما صرف من عمل ومن جهد وبين ما تم التوصل إليه من نتائج. وهذه الحقيقة هي التي دفعت بصاحب الرسالة ﷺ المرتبط بكل كيانه بالدعوة إلى الله، إلى البحث عن أناس وعن أقوام آخرين خارج مكة لإيصال كلمة الله إليهم. وكانت رحلة الطائف أول تجربة في هذا المجال. وعلى الرغم من آلام هذه الرحلة ومضايقاتها فقد رجع إلى مكة مهموما، ولكن دون فقد آماله، ومع سلوة اهتداء شخص واحد. ثم أعقبتها بيعة العقبة السرية في جبل "منى" الشامخ، التي تم فيها البحث عن جيل النور، وعن الصدور المفتوحة للهداية. كان من الصعب حدس من ســـيكون أصحاب هذه القلوب المؤمنة، ولكن تبين فيما بعد أنهم ستة من المحظوظين من أهل "يثرب". لقد أصبح هؤلاء الستة المحظوظون الوسيلة الأولى وواسطتها في يد النبوة لتغيير وجهة الإنسانية وقدرها السيء. وكل ما كان معروفا آنذاك حول المخلّص الأبدي للإنسانية هو ما كانوا يسمعونه أحياناً من اليهود:

"إن الله ســـيبعث نبيا من بني إسرائيل هـــو خاتم الأنبياء، وأن اليهود سيجتمعون تحت رايته وسيسودون جميع الأمم". صحيح أن هذه الأمنية لم تنفعهم كثيرا، ولكنها كانت كافية لإشعال فتيل حب الحقيقة في صدور أهل يثرب وتوجيههم الوجهة الصحيحة. كانت هذه المعلومات البسيطة في

ذلك الزمن بمثابة لبّ حقيقة كبيرة وجوهرها. وعندما آن الأوان المناسب فاز أهل يثرب بلقب "الأنصار"، هذا اللقب الجليل الذي سيبقى إلى يوم القيامة مفخرة لهم، وتاجا على رؤوسهم، وفازوا بنعمة الدنيا والآخرة.

أعقب هؤلاء المحظوظين الستة فيما بعد عشرة آخرون. وبعد سنة واحدة آمن سبعون منهم –بينهم عدد من النساء– وأقروا برسالته ثم دعوه إلى يثرب بعد اجتماعهم به ﷺ في مكان آمن. كانوا جادّين في دعوته إلى مدينتهم، لقد قبلوا كل ما جاء به، وعاهدوه على أن يمنعوه مما يمنعون به أنفسهم ونساءهم وأولادهم. لقد قبلوه وضموه إلى صدورهم، وعاهدوه أن يصونوه بأرواحهم ومُهجهم. ومقابل هذا كان الله تعالى يعدهم بالجنة. تمت البيعة التي رضي عنها رسول الله ﷺ ورضي عنها الأنصار، وفتحت "يثرب" أبوابها للمهاجرين على مصاريعها.

بدأت مكة تفرغ تدريجيا، فهناك كل يوم ثلاثة أو أربعة من أهلها يتركها ويهاجر إلى "يثرب" إما خفية أو علنـــا. وبدأت عملية الهجرة وما حفتها من تضحيات، وما قام به الأنصار من إيثار، ترسم لوحات مضيئة. وتحولت ظاهرة الهجرة إلى شيء سماوي يشبه عملية المعراج، فكأنها سياحة الملائكة في عوالم خلف المكان والزمان. وكانت القافلة الأخيرة لهذه الرحلة السماوية على الأرض من نصيب صاحب القافلة الأخيرة في موكب النبوة. وعلى قاعدة "الأجر على قدر المشقة" وكذلك على قاعدة "أشدّ الناس بلاء الأنبياء..." فقد حَفّت أكثر أنـــواع المكاره والأخطار بهجرته ﷺ، ولكنه تجاوز جميع أودية الموت المرعبة، ووصل إلى البلدة المنورة بفضل تفويض أمره إلى الله، وتوكله عليه، واستسلامه لـــه. وصل إلى المدينة دون أن يصيبه مكروه من قبل سُراقةَ، وما كان يعتمل في صدره من أفكار سوداء، ولا أي خطر من المخاطر التي كانت موجودة داخل وخارج غار ثور، ولا من أذى قطاع الطرق واللصوص الموجودين في الطريق. أصبح سراقة صديقا ومرشحا

لأن يكون صحابيا، وتعرف بُرَيْدةُ مع أصدقائه بالإسلام. أما فخر الكائنات ووردة الجزيرة العربية فقد كان يواصل طريقه إلى بلدته الجديدة وهو يحوِّل طريقه المحفوف بالمخاطر إلى بساتين وحدائق.

وبينما كان بعض أهل مكة ممن يقطر الدم من أفكارهم ومن مشاعرهم يكادون أن يجنوا من الحقد والكره إلى درجة السعار، كان رسول الله ﷺ يدخل "يثرب" في ظل الفرح الغامر لأهلها وهم ينشدون:

طلع البدر علينا من ثنية الوداع وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

وفي الموضع الذي توجد فيه القبة الخضراء حاليا أقام الرسول ﷺ مسكنه المبارك، كما بنى مسجده بجوار بيته، فكان بيته ومسجده المباركان متداخلان ويتنفسان الجو العطر المبارك نفسه. ثم بدأ ينفث فيما حواليه الحياة بالوحي وبالرسالة الإلهية وبإلهام روحه... فَدَيْنا نبع الحياة هذا، ومن بلغه ونفثه ونشره بأرواحنا وأنفسنا.

كان آدم عليه السلام قد بدأ رحلة هجرته الطويلة من الجنة إلى الأرض، لكي يصل إلى الأفق الواسع للحياة الأخروية التي يشير إليها معنى وروح الهجرة. أما نوح عليه السلام فقد تحمل أعباء السياحة في البحار إضافة إلى سياحته في البر. وتجول إبراهيم عليه السلام في أقطار بابل والحجاز وأرض كنعان دون أن يفتر. وانتقل موسى عليه السلام من بيت والدته إلى قصر فرعون، ثم من مصر إلى الأيكة ذهابا وإيابا مرات عديدة. ومر السيد المسيح عليه السلام من جميع الجسور التي مر عليها الأنبياء السابقون. أما حواريو عصر النبوة فقد نظموا كوادر الإرشاد وقوافلها إلى جميع أرجاء العالم.

وإذا أتينا إلى حواريي عصرنا الحالي فقد انتشروا في الجهات الأربع للأرض وهم يستخدمون الوسائل العصرية ويبلغون فكرهم وهم يرددون الآية الكريمة: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ

وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾(النساء:٤). وبفضل هجرتهم هذه سيصل صوت القرآن إلى العديد من الناس، وسينفتح أمام بعضهم سبل الإيمان، وأمام البعض الآخر سبل تأسيس الصداقة والتفاهم والحوار.

أجل!.. سيقوم هؤلاء الحواريون بنفث الصدى المنعكس من غار حراء على قلوبهم على من حولهم في كل مكان يحلّون فيه، ويرشدون القلوب المتخدرة باليأس إلى طرق تحريك هذه القلوب وإحيائها من جديد، وإيصال الهبات والنعم الإلهية إلى الجميع عن طريق العقل والمنطق. ورفع الموانع والعوائق الموجودة بين القرآن والقلوب منهين بذلك فراقا دام عدة عصور، ومحققين بذلك اللقاء الكبير. وهم على وعي بأن نشاطهم هذا إنما هو سباق في مجال الإيمان والعشق والشوق، وأنهم بقيامهم بتعليم الصغار الذين استولى اليأس والخوف والضعف على قلوبهم ينقذونهم من الجو الضيق والخانق لهذه الحياة الفانية، ويدلونهم على طرق الوجود الحقيقي والحر، وعلى آداب المحبة والتوقير.

أفكارنا ومثلنا في ظلال القبة الخضراء

محمد رســـول الله ﷺ هو المعنى الأسمى للخلق، وخلاصة الوجود. فهو الأول حسب شجرة الخلق وهو الأخير بمعنى من المعاني. فكأن الوجود نُظم كأبيات شعر باسمه، وكأن وجوده وجسده كان الكلمة الأخيرة من هذا الشعر. كان تشريفه للدنيا رمزا لولادة الإنسانية من جديد. أما نبوته فكانت وسيلة لظهور المعاني والقيم الحقيقية للأشـــياء والحوادث، وهجرته طريق خلاص الإنسانية، ورسالته جسرا لسعادة الدنيا والآخرة. وصلت بفضله القلوب المؤمنة إلى مشاهدة الوجود كمعرض، والقيام بتقييمه على هذا الأساس، وعلى تفسيره بعد قراءته ككتاب، والعثور في إقليمه المضيء على الطرق المؤدية إلى الحق تعالى. والذين عثروا على الحقيقة بواسطته وبه، يتنفسون على الدوام معاني الأبدية والخلود. والذين وُهبوا المعرفة العميقة بسيرته حصلوا على عصارة كل العلوم ولبّها.

وعلى الرغم من مرور كل هذه السنين والأعوام فهو لا يزال يلتمع في أفق حياتنا كشهاب وكنجم جديـــد، بل كشمس لها القدرة على إضاءة الوجود كله، بل هو في الحقيقة منبع ضياء قوي يستطيع تتويج الشمس. حدود وأفق وظيفته منبع حكمة تهب شـــعور العبودية للقلوب، أما روحه المشبع بالحب فيربط جوانب الوجود بعضها ببعض.

كلما خطا الإنسان إلى جـــو يحيط بما يذكّر به أحس بأن دمه يجري بالحب. وما أن يخطو إلى جـــوه وإقليمه خطوة واحدة حتى يجد نفسه في منتصف الطرق الموصلة إلى الله. أما زيارة قريته فهي بمثابة مرسى وميناء

ونقطة انطلاق إلى عصر النور. والذين يؤمنون بنقطة الانطلاق هذه يصلون إلى شـــرف اللقاء به، وتمتلئ أرواحهم بالشـــوق إليـــه. ومهما كان عدد الزيارات التي يقوم بها الشخص لمرقده الأخضر الطاهر المتناسق الذي ينبعث منه الحب والجمال والرومانتيكية والشعر –وكأنـــه في مغتسل موسيقي– يشعر في كل زيارة بعمق وغنى وخصوصية ذلك الجو والعالم الذي يحيط به، ويستسلم قلبه لعالم الوصال، ويشعر بتغير في نبض الحيـــاة من حوله، ويجد نفسه في خضم متلاطم من عواطف متداخلة من الفرح والحزن.

أجل... في هذا المكان الذي تجلله المهابة، والذي يحيط به المعبد المبارك، والقبة الخضراء التي تبدو وكأنها تريد الانطلاق نحو سدرة المنتهى، يغرق الإنسان على الدوام في بحر من الأفكار حول أحوال العالم الإسلامي، وتحيط به مشاعر عميقة، وتملأ قلبه عواطف متأججة وملتهبة. أحياناً يحس الإنسان أن ضبابا يلف هذا المكان المبارك، وأن حزنـــا ينتشر في أرجاء هذا المعبد، وتبدو القبة الخضراء آنذاك وكأنها جواد أصيل وقف على قائمتيه الخلفيتين تتحدث مع أرواحنا، أو كأنها فتحت يد الضراعة نحو السماء خلف الثاوي المبارك قربها... تمد يد الضراعة نحو السماء وتتوسل، وتذكّرنا بأيام الهجران والحسرة. يحدث أحياناً كأن نـــورا يغمر كل مكان هناك، فيتحول المسجد إلى هالة مثل هـــالـــة القمر، وتبدو القبة وكأنها تقدم تحيـــات الفرح لأهل السماء. وأحياناً يبدو منظرها المتوجه إلى الســـماء في حالة ترقب وانتظار عميق ومؤثر إلى درجة أنـــك تتخيل هذه القبة الخضراء وكأنها ترجمان لآلامك وأحزانك، أو تتوهمها وكأنها تغني أشعار الغزل الفرحة. وفي غمرة صمتها العميق، وانفعالها الصامت تسمع ما لا يُسمع وتشعر ما لا يُشعر، وتحدس ما لا يُحدس، فتحس وكأنك تجاوزت أبعاد المكان الذي أنت موجود فيه، وأبحرت في بُعد وفي عمق آخر.

تبدو القبة الخضراء والمعبد المبارك الذي يحيط بها –مع الجبال والتلال

الصغيرة والكبيرة حواليها- في تناغم تامّ مع السهول الواسعة والصحراء الممتدة والواحات التي تهب فيها نسائم كأنها قادمة من الأبدية، حتى لتبدو وكأنها قد صُممت في السماء ثم رسمت على الأرض. أجل فالقبة الخضراء أعمق حتى من أعمق زرقة في السماء، وقطعة محفوفة بالأسرار. فكأن أسطر وصفحة كتاب الطبيعة التي تكون هذه البقعة المباركة قد اختيرت بدقة، ووضعت بعناية في محلها وفي موقعها، حتى كأنها نقطة التقاء السماء مع الأرض، ونقطة التقاء العديد من الأشياء المادية والمعنوية. أما القلوب المفتوحة لصاحب هذا المكان -جعلت أنفسنا فداء له- فما أن يلجوا ويتنسموا جوه حتى يحسبوا أنفسهم، وكأنهم بدأوا يخالطون أهل السماء. وما أن يُقبل الإنسان على المواجهة التي تعد البستان الخاص وحديقة العشاق حتى تثور عنده المشاعر، ويحس بأن قلبه على وشك التوقف، ويتصاعد الانفعال في قسمات الوجوه الطاهرة. والحقيقة أن عدد الذين توفوا هناك بالسكتة القلبية ليس قليلا.

كانت المواجهة على الدوام بالنسبة للعشاق مرفأ ونقطة انطلاق نحو الأعالي. وكل من وصل إلى هناك من أصحاب القلوب العاشقة يبدو وكأنه دخل إلى دهليز من زمان سحري، وفتح جناحيه إلى السماوات العالية أو أبحر في بحار واسعة... يدخل وكأنه يستمع إلى شعر حول جمال تلك البقعة المباركة وإلى براءتها التي هي فوق كل براءة، ويعبّ من هذا الجمال كأنه يعبّ من ماء الكوثر. ويشعر في كل لحظة تمضي بلون جديد من السعادة.

الزمان عند المواجهة مضيء وساحر ومفتوح للخيال إلى درجة أن كل صاحب فؤاد ذكي وصل إلى هناك يتخيل وكأنه يرى الوجه المشرق الطاهر للنبي ﷺ، ويحس بجزء من انفعالات صدره المتفتح للوحي، ويتخيل أنه يسمع صوت أبواب السماء وهي تنفتح، وأصوات رفرفة أجنحة جبريل عليه السلام، وأصوات تلاوة مهيبة للقرآن وهي تتردد، فيحس وكأنه قد تبلل من رأسه

إلى أخمص قدميه بمطر الرحمة من ذلك العهد السعيد، فلا يملك نفسه من التناغم مع هذا الجو، فتذرف عيونه دموعا ساخنة. وعندما يحس أن أحاسيس الروضة الطاهرة قد طوقته وأحاطت به بعمق، يتمنى أن يذوب وأن يسيل إلى تلك الروضة الطاهرة.

والحقيقة أن كل ما يراه الإنسان هناك ويحس به يتصف بأنه عميق، ويخاطب سريرة الإنسان وقلبه. المكان هناك وكل شيء لا بد أن يهمس للإنسان شيئا. وبجانب بكاء العاشقين وأنينهم ترى الأعمدة المحظوظة الصامتة هناك، والبسمة الحزينة المشاهدة في حال "المواجهة" التي يرسل من خلالها الضريح المبارك -المطاف القدسي للأرواح- البسمات إلى عيون خيالاتنا مثل صاحب بيت مضياف ووفي... هذه البسمات دافئة ومؤثرة إلى درجة أن صاحب كل فؤاد ذكي يحس تجاه هذه المعاملة الخاصة والسرية وكأنه وصل إلى الخلود.

والذين يحسون في قلوبهم، وينظرون إلى هذا الدرب الملائكي بهذه العين، ويفهمونه بهذا المعنى، يخيل إليهم أنه لا يوجد هناك أي شيء حي أو أي جماد، بل صمت تلفه ألوان المهابة، وكأن هناك انتظارا عاما ضمن جو انفعالات الزيارة. فما أن يخطو أي زائر الخطوة الأولى إلى ذلك المقام حتى يجد نفسه تحت تأثير ذلك الجو ويبدأ بالإنصات إليه. أما الروضة المطهرة فتبدو وكأنها تقدم أسلوبها وصمتها أنموذجا لهم، وتفتح في عالم عواطفهم خمسين نوعا من المنافذ لأحاسيس وعواطف بِكر لم يعرفوها، ولم يتذوقوها من قبل.

يلقى الإنسان في حضن الروضة المطهرة على الدوام سحرا يبرق أمام العيون ويلف القلوب، فيحس بنسائم عالم جديد في أحاسيسه وفي أفكاره، فيلج من أبواب خيالية في أعماق قلبه إلى عوالم غامضة تلفها الأسرار، فكأنه يسمع من منبر الأرض تلك الخطبة الخالدة -التي شكّل كلامُ الحق تعالى

بيانه- من فم سيد الفصحاء، وتفعم السعادة قلبه لكونه من أمته، فيهوي إلى الأرض ساجدا سجدة الشكر.

لا شـــك بأن مثل هذا الحدس والاســـتماع بأذن القلب، ومثل هذه الانفعالات والعواطف والأذواق تظهر وتأتي نتيجة تفاعل وتجمع وتراكم العقيدة مع قناعة وتوجه كامل ومع حدس عميق. فما أكثر ما تســـتطيع الروضة المطهرة والمسجد النبوي وموطن النبي ﷺ وموطن العاشقين من نفث للمعاني في روع هؤلاء الذين ملكوا مثل هذه العقيدة والقناعة والتوجه وهذا الحدس.

أجل فللروضة المطهرة بالنسبة لزوارها الذيـــن أكملوا وأتموا تركيزهم القلبي والروحي موضع هام في عالم أحاسيسهم وانفعالاتهم، ولها موقع خاص متميز بكل تفصيل من تفاصيله... بِصَمْتها المهيب، ومنظرها الوقور وعمقها اللدني... كأنها تنشد شعر الوجود وتومئ إلى العالم الآخر... كأن كورس السماء ينشـــد هنـــاك أعذب ألحان الموسيقى، ويضع في قلوب المتوجهين إليها جمرة العشق، فيعيش كل واحـــد منهم فترة لذة العشق والوصال، ثم تغيب مرة في ذلك الصمت العميق، وتتركك في وحدة حزينة وسط خيمة الوصال، وكأنها لم تفتح لك قبل قليل أستار الأسرار... تتركك وحدك وترجع إلى حالها البكر السابق... تتركك ولكنها لا تهمل الدعوة الثانية لقلبك.

من فيض العيد

العيد هو يوم لقاء للمشاعر وللفكر الإسلامي الذي يفيض فيه من إنائه ويتماوج وينتشر فيحتضن كل جانب... كأن كل ماضينا مستقر ومستكنّ فيه... كأن ماضينا يتكلم أو يهذي في حلمه... ثم يستيقظ ويدبّ فيه النشاط. لقد تسربت كل خصائص ومميزات عالمنا -من الماضي وحتى الآن- إلى بوتقته وإلى جوه العام، إلى درجة أننا نشعر في أعماقنا كلما أدركنا أيامه المباركات وكأننا نعيش أيامنا المجيدة السابقة. وعندما نغمض أعيننا لنصيخ السمع للأعياد، تتراءى أمام خيالنا تلك الأيام التي كانت راياتنا تخفق عالية في السماء، فنشعر بطعم تلك الأيام وبلذاتها المجيدة، ونعيش مرة أخرى في صفحات ذلك التاريخ العملاق... بـــل نعيش -بالأصح- قِيَمنا وهويتنا والمعانيَ العائدة لنا. وهكذا نكون وكأننا نصيخ بسمعنا في هذه الأيام إلى مجموعة من الأنغام المتناسقة الإيقاع والمتآلفة من أحزان القلب ومن أفراحه.

أجل!.. نعيش في العيد من حين لآخر شـــعور غربة وهجران، وأحياناً يداهمنا شـــعور لذيذ من لهفتنا إلى الوصال. وتبدو لنا بعض الأعياد حاليا وكأنها برزخ بين الفرح والحزن. فبينما تحتضن أقوى المشاعر العلوية السامية أرواحنا وتثيرها، نرى الأحزان من جانب آخر وهي تُضخ إلى قلوبنـــا. أجل!.. فكل منا يعيش في هذه الأيام بمشاعر متداخلة من فرح غامر ومن حزن يكاد يبكينا. ففي اللحظة التي نشعر فيها بكدرِ وحزنِ فقْدنا -في يوم من الأيام- جناتنا، تتراءى أمام أعيننا في اللحظة نفسها خيالات الفردوس الذي نؤمن بأننا ســـنصل إليه في المستقبل فنكاد نغيب عن أنفسنا في لجة

الفرح والبهجة. أي بينما تذرف عيوننا دموعا كمطر الربيع، تبدو أمام أرواحنا مناظر سفوح الجنة. أجل!.. على الرغم من كل شيء فإن الحيوية الدافقة لخيالات أيام العيد المليئة بالحسرة تبدو وكأنها تهدي لنا هدية موسم ربيع جديد ناضر حتى ولو كنا في أيام الخريف أو في أواسط الشتاء. في هذه الأيام الزاخرة بالأنوار نشعر بأننا نحيا من جديد بحزن لطيف وبانشراح عميق وبأمل عريض واسع يلفنا ويثير مشاعرنا، وفي كل مكان نرتاده ونـــزوره نشعر وكأن الخضر عليه السلام كان هناك قبلنا وفرش سجادته على تلك الأرض، فندخل في عالم من البعث بعد الموت.

الأصوات الحبيبة في العيد... البسمات المرسومة على الشفاه المنبعثة من الأرواح... مظاهر الإخاء التي تراها في كل مكان... إلقاء السلام على كل شخص تصادفه واحتضانك لـــه... توســـيع دائرة الإخاء بحيث تشمل الجميع... الضيافة وكرمها في كل مكان، وكأنها ولائم أعراس... ومظاهر الاحتفال في كل ناحية... يجري كل هذا أمام أعيننا ليهمس في آذاننا باسم الإخاء العالمي أشياء وأشياء.

تهفو نفوسنا إلى الأعياد، وتعتبرها ضرورة ماسة، ونحاول أن نشعر بهذه الأيـــام المباركة بكل عمق وبكل هبـــاتها وهداياها وألطافها... وتتصاعد مشـــاعرنـــا وانفعالاتنا بالتكبيرات والتهليلات... ويتطهر عالمنا الداخلي بالاستغفار... ونلقي بفرح ونشوة جميع همومنا وأحزاننا جانبا... ونتنفس بالمدائح النبوية والأناشيد الدينية وبصورٍ وأنواع المناجاة التي تشكل بُعدا من أبعاد ثقافتنا. وما أكثر الألحان التي نستمع إليها دون كلمات أو أبيات في هذه الأيام الخصبة الغنية! أما الذين بقوا بمشاعرهم وأفكارهم على صلة بجذور هذه الأمة وبمعانيها وبقيمها، وكذلك الذين بقوا ببنية وطبيعة أسرهم وعوائلهم مرتبطين بعالمِ وبدنيا هذه الأمة يحسون طعما آخر ومعنى آخر في هذا الشريط الزمني الزاخر بالألوان. وســـواء أكان المحتفلون بالعيد جالسين

على الفرش والوسائد في خيامهم، أم جالسين قرب مواقدهم أو مدافئهم المتواضعة، أو جالسين في ظلال أغصان أشجار حدائقهم وفي حضن بساط أخضر، أو في غرف رحبة وصالونات واسعة في قصورهم، يشربون الشاي والقهوة، ويتناولون أنواع الحلوى... في كل هـــذه الأجـــواء يفوح عطر الاحتفال بالعيد في كل مكان، وتنتشر فرحة العيـــد فوق جميع الرؤوس. الأصوات الدافئة والكلمات التي نسمعها في هذا الجو الحريري للعيد، تمس القلوب المملوءة بالإيمان، والمطمئنة به حتى تصل إلى أعماق تاريخنا المجيد مثيرة لدينا تداعيات كلٌّ منها بقيمة هذا العالم.

ينتهز الأطفال ســـاعات العيـــد ودقائقه المفتوحة على الجميع والمتميزة بالمسامحة ليشاركوا بعواطفهم الجياشة وبأصواتهم التي تشبه زقزقة العصافير وتغريد البلابل التي تنتقل من غصن لغصن فيلعبون ويمرحون في جو العيد حتى منتصف الليل حتى ينال منهم التعب بعد قيامهم بحركات لا تخطر على البال. وهكذا يجعلوننا نعيش عيدا داخل العيد.

الأعياد أكثر المناسبات العملية لتقوية العلاقات الإنسانية، وأفضل أرضية للأذواق القلبية، وأفضل جو لنشر المحبة والتعاون والامتزاج، وأفضل مسرح لسماع أدبيات الحوار والتساند. وفي ساعاته ودقائقه الزرقاء زرقة السماء نستمتع -بجانب جميع اللذائذ الجسدية المشروعة- ونأخذ نصيبنا من موائد الفكر والمشاعر ونستمع إلى تناغم أرواحنا. أما عندما نؤدي عباداتنا وطاعاتنا بإحساس وشعور... وعندما تحيطنا التكبيرات والتهليلات من كل صوب، ويأتي العيد بطعمه الفريد، ومذاقه الخاص، وجوه المتميز، وينسكب إلى أفئدتنا موجة إثر موجة، لتغرق أرواحنا بجو الآخرة... عند ذلك نشعر بأن القيود التي تربطنا مع هذه الدنيا الفانية ترتخي وتنحل قيدا إثر قيد، ونحسب أنفسنا وكأننا في عالم آخر جديـــد... نحسب هذا ونرى أن كل دقيقة مستثارة بالبهجة في العيد تنـــزل كغيث من رحمة الله على قلوبنا

الظامئة للعيد منذ سنوات، ليغسل جوانب أرواحنا التي يبست ويرطبها، ويصبح سورا يحافظ على زهور الأمل المتفتحة في أعماق صدورنا، وينفخ فيها الحياة.

نحن نرى على الدوام أن الأعياد بالنسبة لأصحاب القلوب المؤمنة تقوم بإشباع أذواقهم الأخروية، وأشواقهم القلبية، ووَلَعِهم الذي لا يعرف الفتور، وآمالهم في الحياة الأبدية الخالدة. ومن يدري عدد الأشواق التي نصل بها إليها. والحقيقة أن من الصعب للمؤمنين معرفة ما تحس به قلوبهم في الأعياد وما يشعرون بـــه، ويشعرون بصعوبة التعبير عنه. لأن من الضروري لفهم الأحاسيس التي تسكبها الحياة -ضمن تجلياتها الأخرويـــة- في الصدور الطاهرة، الشعور بهذه النسمات بدرجة شعور هذه الصدور والبلوغ مبلغها في هذا الأمر.

يتم تلمس أســـلوب ســـحري في تصرفات المؤمنين في الأعياد، وفي سلوكهم المتوازن المطبوع بطابع الوقار، وفي نظراتهم العميقة، وأحاديثهم التي تفوح بالإخلاص حتى كأنك تستمع إلى حوار سحري من حوارات الجنة. أجل!.. إن هؤلاء الذين يفهمون جـــو الأحاسيس الخاصة بالأعياد، بعد القيام بإيفاء وظائفهم ومسؤولياتهم، يبدون نضجا وسعة أفق إلى درجة أن كل نظراتهم تحمل على الدوام عمقا ربانيا، ويحمل كل تصرف من تصرفاتهم وكل حركة من حركاتهم وسكناتهم جدية ســـاحرة، ويحمل صمتهم شيئا وراء هذا العالم، وبسماتهم لطافة دافئة. كل واحد يأخذ -حسب درجته- نصيبه من سحر العيد، حيث يمكن سماع هذا من كل مؤمن وملاحظته في وجه كل واحد منهم. يمكن هذا لأن أغلبية هؤلاء الناس هم من الذيـــن لم يتيسر لهم التعلم والقراءة ولم يتلقوا تثقيفا جديا. ولكن ترى عليهم آثارا غنية من مكتسبات التكايـــا والزوايـــا والمدارس الدينية الأهلية والمدارس الرسمية، ويملكون غنى روحيا على الدوام، ويتصرفون على ضوئه. ومعظم

هؤلاء على درجة كبيرة من الارتباط بالإسلام، ويتمتعون بدرجة كبيرة من الإخلاص، حتى كأنهم ليسوا أناسا عاديين، بل موازينَ دقيقة تزن كل قيم تاريخنا المجيد، ويمثلون حراسة حية للخزانة البلورية لهذه القيم المتجمعة فيها طوال عصور عديدة من التاريخ. ونحس في سلوكهم وتصرفاتهم بلذة ثمرات الجنة وبسكينة سفوح الفردوس وحلاوة مشاهدة الجمال الإلهي. نظراتهم جدية في كل شيء، وبنية تفكيرهم متينة في كل مسألة. وهذا يظهر كيف أن أعماق أرواحهم لا تزال محافظة على جذور عميقة من المعاني، مما يهمس في قلوبنا مجد الماضي وأمل المستقبل. لأن هؤلاء بتواضعهم وعزة أنفسهم وإخلاصهم وحالاتهم الروحية الممزوجة بالحزن والبهجة يقدمون أنموذجا غير موجود في الأمم الأخرى. في مظهرهم العام ترى -بجانب الألوان الخفية الناتجة عن الانتساب لأمة مجيدة ذات تاريخ عريق- صفات الأرواح التي نضجت بالقرآن من جدية ووقار. وقـــد لا ينتبه بعضنا لهذا، ولكن الأمر هكذا، لذا فالنغمات التي تنساب من نظراتهم وتنسكب إلى أرواحنا على الدوام تعكس أصداء واسعة في أعماقنا.

المعاني الفياضة من المعبد

المعبد ترجمان سري يخاطب روح الإنسان وقلبه بلغة مبهمة وببيان سحري ويحاول إفشاء الحقائق العليا بكل لسان.

يشعر الإنسان في المعبد باليوم وبالأمس... بالأمس وبالأبد معا وبشكل متداخل... فكأنه يسبح في بحر واسع من فكر العبادة ومنبعها ومعناها. فإن أضيف إلى هذا اللسان البليغ للمعبد خطيب عالم ومفوه فلا يمكن تصوير مبلغ اللذة الروحية التي تصل إليها القلوب.

أجل!.. إن المعنى الذي تهمس به المعابد بوقار ورزانة، المترع بالإيماءات والإشارات، عندما يتحد بصوت رخيم للدعوة الإلهية من مؤذن أودع حنجرته بإمرة قلبه... عندئذ نحس بهذه المعاني وهي تنسكب كغيث على مشاعرنا... وتملأ قلوبنا... فكأنها في النضارة أزهار وورود تفتحت للربيع... ونحس حتى أعماقنا بفرحة الوجود.

كأننا صامتون أزاء الوجود خارج المعبد... وكأن قلوبنا مغلقة تجاه ما وراء الوجود... لذا نرى المعبد كأنه مؤذن يقوم بتحرير مشاعرنا المدفونة في أعماقنا، ويحررها من السجن المظلم لأجسادنا ويوصل صوتها إلى السماوات السبع كخطيب مجلجل الصوت. فنحس في حريمه عندما يغشى الصوتُ الصمتَ، وعندما يغشى الصمتُ الصوتَ وكأن أعناقنا قد امتدت إلى السماء وإلى اللانهاية.

وبنسبة تفتح القلوب للنور يثير الصوت والذكر في المعبد مشاعرنا ليقودنا من لذة إلى لذة ومن فورة إلى فورة ومن الإيمان إلى العشق، ومن العشق إلى الفداء، ويكون لنا أجنحة وريشا لنعلو إلى السماء. أحياناً يهمس

المعبد بلسان يفهمه الروح ويثير فيه الشوق إلى اللقاء... أحياناً يُسمِعُ أرواحَنا خرير أنهار الجنة، وأنغام بلابلها ويتجول بنا تحت أشجار الجنة... أحياناً يفتح لنا ممرات للوصول إلى الجمال الأزلي، ويؤسس لنا جسورا بين الدنيا والآخرة ويربط بين هذين العالمين، ويفتح أمامنا منافذ من هنا إلى هناك، ويثير فينا خيالات مبهمة.

إن ما يظهر في المعبد عند أداء العبادات والطاعات والذكر والأوراد من تكرار ظاهري في حقيقة الأمر يشبه المقاطع المكررة في الشعر والنشيد يحمل المعنى الرئيسي والمشاعر الأساسية في ذلك الشعر والنشيد. وفي كل تكرار يرى الإنسان في مرآة ما يعلمه ما لم يكن يعلمه، ويعيش ما يدركه بعقله مع ما يحسه في وجدانه في بوتقة واحدة وبشكل متداخل ومتشابك، فيحس في هذا التماثل والعينية شيئا آخر ونضارة أخرى.

أحياناً يرتفع صوت جديد من المنبر أو من المحراب أو من إحدى المقصورات الخلفية يتناغم مع ذلك الترتيل المتكرر المنساب بهدوء ونعومة من المعبد، فنحس بأن فيضاً من الضياء والنور قد نثر فوق طرقنا وأنفاقنا وممراتنا، ونتوجه إلى بُعد آخر بإيقاع آخر وكأننا تلقينا أمراً جديداً بالتحرك والمشي.

أحياناً تشترك وتهتف بأرواح منفعلة مع الأصوات المنسابة من المآذن والمحاريب. آنذاك يبدو المعبد وكأنه يريد ضخ كل معاني السماء وروحها وعصارتها في القلوب كبلبل يغرد حتى يكاد ينشق، أو كحشرة زيز الحصاد تكاد تتمزق وتنقلب تماماً إلى أصوات رمزية، ولكنها لا تتمزق، بل تطفر إلى مستوى آخر من الصوت ومن النداء وتستمر دون توقف.

ونحن نحس أن هذه الأصوات المرتفعة من المعبد هي معاني الوجود وغايته وأساسه، نشعر بها وهي تفيض من قلوبنا كصرخات مدوية، فنحس وكأن قبة قلوبنا قد خُرقت أو ثقبت فنكاد نغيب عن أنفسنا، وكأن النسائم

الإلهية قد أحاطت بعالمنا الداخلي، فنشعر وكأننا وصلنا إلى الشوق الأزلي للسماء مثل حزمة ضوء أو نفحة نسيم.

كل صوت يرن في آذاننا، وكل معنى يبدو أمام أعيننا ينشئ قبباً فخمة وعظيمة فوق رؤوسنا، فنجد انفسنا على عتبات أبواب مهيبة منفتحة على عالم لانهائي. في هذه الأثناء يحس كل منا وكأنه قد انسلخ من مكانه، وارتفع وفتح جناحيه فوق الجميع وفوق كل شيء، وألقى بظله فوق جماعة المعبد.

أحياناً تتوسع الحلقة التي نكون فيها يميناً ويساراً، وأماماً وخلفاً، وتنتشر وتمتد بحيث تضيق الأبعاد والمسافات حتى تكاد تتمزق، حتى ليخيل إلينا وكأننا في طواف باللذة الحقيقية للحياة، فندرك أننا حول مطاف مجهول مع جماعة لا تُعدّ ولا تحصى من الملائكة والروحانيين والجن، فنحس بلذة الوصول إلى الغاية الحقيقية من وراء الخلق، فنشعر أننا بلغنا من اللذة غايتها التي لا غاية وراءها... ونعيش هذه المشاعر.

في كل مرة من هذه المرات التي ننغمر فيها في هذه الأحاسيس التي يبعثها صوت مختلف، وكلمة مختلفة، وتأثير أداء آخر، ولهجة أخرى، يبدو لنا وكأننا نكتشف كائنات جديدة، ونشاهد صور جمال عوالم أخرى مجهولة من المنافذ المنفتحة على أعين قلوبنا، فنركض من السهول إلى السفوح، ومن القمم إلى الوديان، ونحس بحاجة إلى إطلاق صرخات الفرح والبهجة ببراءة الأطفال. وأحياناً ننطلق -بأمر مختلف من الرائد- إلى أقاليم أخرى ومشاهد جديدة، فنطوي التلال والجبال، ونسرح في السهول والوديان، ونعانق الربيع، ونشم عبق عطور الصيف، ونحيّي الخريف، ونفتح أشرعتنا لربيع جديد.

يبدأ تكرر هذا المنوال على الدوام في إقليم آخر، ويتوسع في إقليم آخر مختلف، وينتهي ويختتم في إقليم آخر. أحياناً نبتعد عن أماكننا إلى درجة لا

نشعر فيها بأننا كنا معاً، ونطير -كما في الأحلام وفي الخيال- إلى مكان نريده، ونصل إلى كل ما نود الوصول إليه بكل يسر. وننطلق إلى السماء وكأننا نتنـــزه في حديقة من حدائقنا أو في بستان من بساتيننا، ونصل إلى أكثر الأماكن حرمة وسرية. ولكن ما أن نصل حتى ترف أعيننا -التي تقطع علاقتها تماماً مع أي نـــوع من أنواع الظلام- من الفرحة والحبور وكأن الوصال سيتحقق بعد خطوة واحدة فقط.

في مثل هذا الجو تهمس الأحاسيس والتصرفات، بـــل حتى الكلمات والاحاديث، وأصوات هذه الكلمات والأحاديث ونبراتها والألوان وتماوجاتها أموراً أخرى ومعاني أخرى لم نعهدها من قبل ولم نعرفها. هنا عندما نرتفع من الشيء المعهود إلى غير المعهود، ومن الأشـــياء الاعتيادية إلى الأشياء الخارقة، تصل إلينا أصوات مشاعرنا التي تتألق بصور الجمال الحي من حولنا وكأنها تقول: "هو... هو". فيزداد اضطرام نار العشق والوجد عندنا ويزداد توهجاً. وعندما تمتلئ قلوبنا بنار عشق الحبيب تعالى تنقطع كل الأصوات، ولا يبقى هناك سوى ظلال الأنوار المنعكسة من الوجود المطلق.

إن المعبد الذي نفخ الحياة في هذه الدنيا المباركة قد نكس رأسه، ينتظر من يفهم معانيه ويشرح خطوط روحه ومعارجها، وينتظر أساتذة الكلمة واللحن من أصحاب القلوب وابطالها لكي يصل إلى الأبعاد التي أنشئ لبلوغها.

لا أدري من سيقوم بتعمير المعبد الذي قطع حبل ظهره، ليرجعه إلى هويته السابقة، ومن سيفتح أمامه الآفاق لكي يهدر بصوته؟ ومن سيقوم باصلاح خلل أصوات الخرخشة الصادرة الآن منه ليؤلف لحناً يســـحر الأرواح والقلوب؟ من سيعيد إلينا من جديد المعبد الذي فقدناه؟

لا أدري إن كان هذا باستطاعة المسؤولين أم لا... ولا أدري إن كان منشدو المعبد يستطيعون من خلف عصور عدة مصاحبته بأصواتهم وأنفاسهم

أم لا... هذه مسألة أخرى غير مسألة غربة المعبد المستمرة منذ عصور.

نحن الآن نعيش منذ سنوات في أجواء حلم نرى بشارات تحققه... حلم جيلنا... جيل الفاتح الذي سيقوم بحل هذه العقدة المستعصية بضربة سيف واحدة.